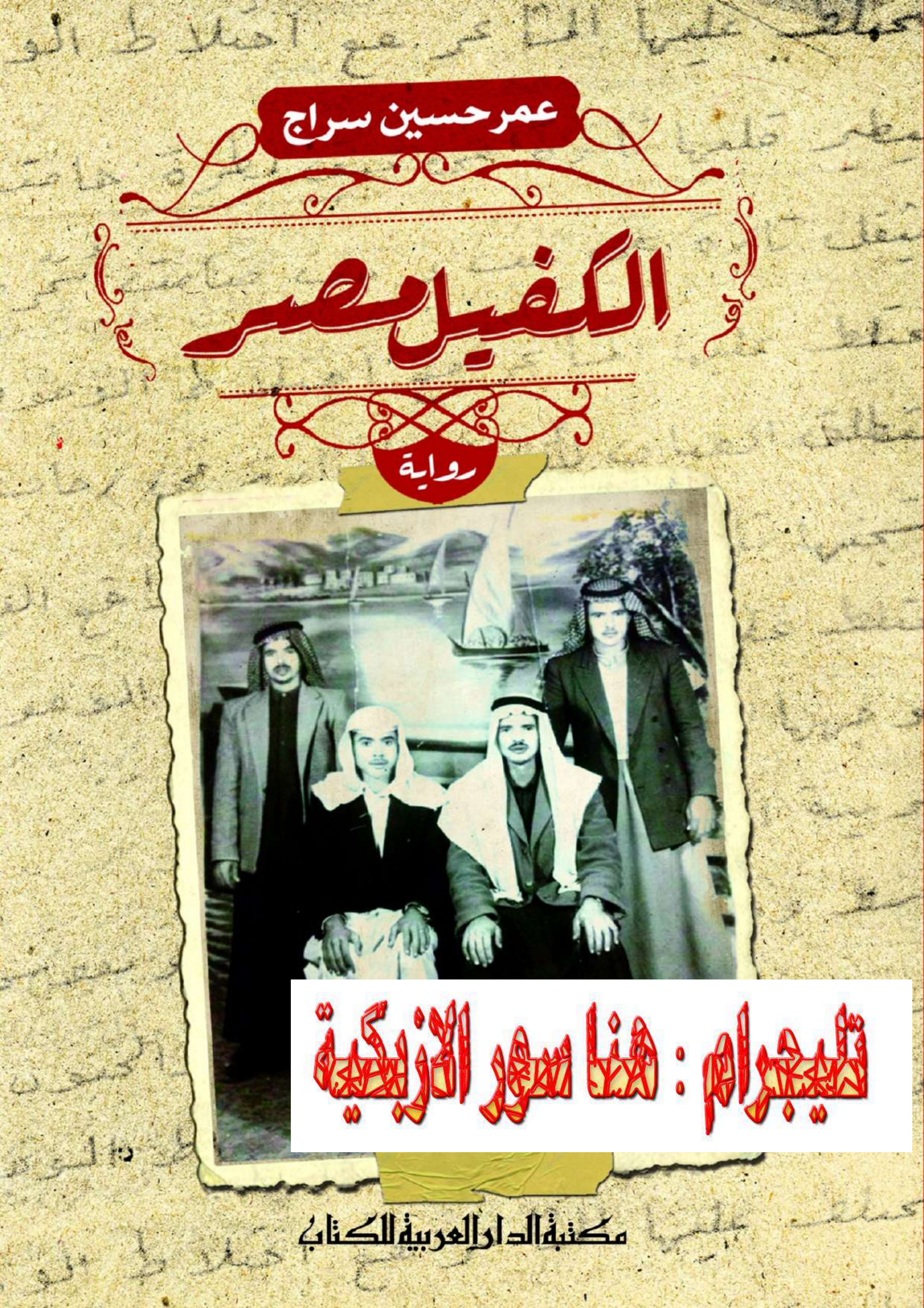

عمر حسين سراج
الكفيل مصر
رواية
تليجرام : هنا سور الازبكية
مكتبة الدار العربية للكتاب

الكفيل مصر

عمر حسين سراج



الكفيل مصر: رواية /عمر حسين سراج .- ط2.-

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2014.

136 ص؛ 20 سم.

تدمك: 9789772937172

1- القصص العربية.

أ- العنوان 813

رقم الإيداع: 2014/ 14068

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ذو الحجة 1435هـ - أكتوبر 2014م

الطبعة الثانية: 2014م



الكفيل مصـر

رواية

عمر حسين سراج

مكتبة الدار العربية للكتاب



1

تابع عبد الله رجب، من خلال النافذة الصغيرة، تحرك شفرات مروحة جناح الطائرة المتجهة من جدة إلى القاهرة، فجر يوم 26 يناير 1952..

بدت على ملامح وجهه الأسمر الطويل، وشفتيه الداكنتين المكتظتين، علامات القلق، وربما الخوف؛ فتلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها جدة إلى مكان خارج المملكة العربية السعودية.. فباستثناء السفر البري إلى المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والرياض، لم يبرح مسكنه في حارة الشام منذ ولادته.

بشكل مفاجئ، تذكر من على مقعده بالطائرة، يوم أن سقط وتدحرج على الأرض الرملية للحوش المحيط بمسكن أسرته المتواضع، عندما صفعه والده الشيخ حسن رجب، مؤذن مسجد «التقوى»، على وجهه بقوة.. لحظتها أضاءت ظلمة ما قبل بزوغ الفجر، وكأن صفعة الشيخ حسن وميض برق في السماء.

لم تكن جريرته سوى أن النعاس ورغبته في مواصلة النوم قد أوقفاه عن مواصلة سكب ماء إبريق الوضوء على كفي الشيخ حسن المنبسطتين أمامه، قبل توجه الأخير إلى المسجد لرفع أذان الفجر.

تمددت شفتاه إلى الجانبين قليلًا، وذكريات ثلاثين عامًا مضت، هي تاريخ حياته كله، تتداعى بخياله..

تذكر سؤال زوجته لولوة الزهراني عن الخطوط العريضة الداكنة على ظهره، التي رأتها أثناء تدليكها لكتفيه، ورقبته، كعادتها بعد استيقاظه من غفوة ما بعد الغداء.. قال لها وقتها: إنها عدوانية بعض شباب الحي المجاور.. بينما كانت، في الواقع، آثارًا دائمة لجَلد الشيخ حسن له بالسوط السوداني.

بدأت الطائرة في التحرك تجاه المدرج.. تذكر سليمان أفندي، صديقه المصري، الذي قدم إلى جدة لاستثمار أمواله التي ورثها عن والده عمدة بركة السبع بمصر، في إنشاء مصنع للمياه الغازية قريبًا من الميناء البحري.. قال له سليمان: إن نهاية المدرج بالمطار هي بداية المجهول.

كان سليمان أفندي مقربًا لقلب عبد الله، ولكن ما كان يثير حيرته هو سبب هجرته من القاهرة إلى جدة. لم يُفصح سليمان أفندي عن سره أبدًا إلا بالقول المتكرر المقتضب: «مصر دوشة». رغم ذلك، كان سليمان أفندي أول المتحمسين لفكرة سفر عبد الله إلى القاهرة، والإقامة بها مع أسرته. فكثيرًا ما كان عبد الله يشكو له همومه في العمل بمصنع الزيوت والصابون، أثناء تدخينهما الجراك على المركاز في مقاهي طريق المدينة المنورة، البعيدة عن العمران.

حدَّثه عبد الله كثيرًا عن كراهية رئيسه له، وتعمده الإساءة إليه، وتنفيره من العمل بالمصنع، إلى أن سنحت لعبد الله الفرصة ذات يوم، عندما اكتشف ارتكاب رئيسه بعض المخالفات المالية، فرفع شكوى لمدير عام المصنع، الذي قام بتسريحه من العمل بدلًا من طرد رئيسه..

أظلمت الدنيا في عيني عبد الله بعدها، فلم تكن فرص العمل متوافرة في مدينة جدة، مما دفعه لبيع قطعة أرض صغيرة بحي الرويس، كان قد ورثها عن الشيخ حسن بعد وفاته، وتقاسم قيمتها مع أخيه الوحيد
عبد اللطيف رجب، وذلك للإنفاق على احتياجات أسرته.

وقامت زوجته لولوة، من تلقاء نفسها، وبمساعدة والدتها سناء بخاري، بمخابرة رستم سعيد، عمها المقيم في القاهرة، الذي كان قد نزح من أوزبكستان إلى مصر، وابتسم له الحظ، فحقق ثروة كبيرة من تصنيع وتوزيع الحلويات، من خلال مصنع بدائي أسسه في طريق القاهرة - الإسكندرية الزراعي، ومحل توزيع على ناصية تقاطع شارعي إبراهيم باشا وفؤاد باشا بميدان الأوبرا.

رحَّب رستم بفكرة وجود أقاربه معه في القاهرة، فعرض على عبد الله إدارة محل توزيع الحلويات، بما توسم فيه من خبرة في مجال المحاسبة والإدارة.

على المقعد المجاور لعبد الله في الطائرة، جلس ابنه الأكبر
عبد المطلب، أو طِلِب، كما يحلو له أن يناديه، وهو في الربيع التاسع من العمر، وأمين، ابنه الثاني، وكان في الثامنة من العمر.

على مقاعد الجهة الأخرى، جلست زوجته لولوة، ووالدتها سناء، ومن خلف السيدتين كانت تجلس فاطمة، الابنة الوحيدة لعبد الله، مع أخيها الثالث سعد.

كانت لولوة قد واصلت، منذ زواجها من عبد الله، الإنجاب سنة بعد أخرى.. فبعد طِلِب وأمين، تمنت لولوة أن تنجب طفلة تكمل بها تشكيلة عائلة رجب من الذكور والإناث، فوهبها القدر سعد..

كررت المحاولة بعدها مباشرة، فرزقها الله بفاطمة. عندها أحسَّت أن سنوات إنجاب الإناث قد أشرقت، ولا بد لفاطمة من أخت.. إلا أن فقدان عبد الله لوظيفته جعلها تجمِّد، بشكل مؤقت، تخطيطاتها الأسرية..

تزوجت لولوة من عبد الله زواج أفراح، كما يقولون في جدة؛ حيث شاهدتها ناريمان، عمة عبد الله، مصادفة في أحد أفراح مدينة جدة، وتبادلت معها الأحاديث، واستحسنتها لابن أخيها.. وعندما عرضت العمة الأمر على عبد الله، أبدى تحمسًا لخطبة لولوة، بعد وصف عمته المثير لمحاسنها.

لولوة في السادسة والعشرين من العمر، بيضاء البشرة، ذات وجه يميل للاستدارة، مع أنف دقيق، وعينين عسليتين واسعتين، وخال على إحدى شفتيها المكتظتين.. شعرها بني ناعم وكثيف، وخداها مشربان باللون الوردي. متوسطة الحجم والطول، ولكن من النوع الذي يطلقون عليه: امرأة بضة.

كانت جذابة للغاية، بسبب جمالها الذي ورثت قدرًا كبيرًا منه عن والدتها.

أما سناء، والدة لولوة، القابعة على المقعد المجاور، والمقوسة الظهر قليلًا بعد تعديها الخمسين من العمر.. فقد وطئت قدماها

الأراضي المقدسة يوم وصول عائلتها إلى مكة لأداء فريضة حج عام 1923، واستقر بها المقام هناك بعد زواجها من بريك الزهراني، تاجر العسل النازح من الجنوب إلى مكة المكرمة، لكسب قوت يومه من بيع العسل الحضرمي للحجاج والمعتمرين. لم تنجب سناء إلا لولوة، وبعد بضع سنوات من إقامتها في مكة المكرمة، انتقل بريك بعائلته الصغيرة إلى جدة، واستمر في مواصلة تجارة العسل، حتى وافته المنية بعد زواج لولوة من عبد الله.. عندها انتقلت سناء للعيش مع ابنتها..

كانت سناء بيضاء البشرة، قصيرة القامة، ذات عينين طوليتين عسليتين، وذكاء فطري مميز.. لم تتلقَّ أي تعليم سوى ما حفظته من تلاوة القرآن في الحرم المكي، وما درّسها إياه زوجها حول كيفية التعبير التحريري الموجز عن نفسها بلغة عربية بسيطة.

أخذت الطائرة تزيد من سرعتها فوق مدرج الإقلاع، وتصاعدت معها طقطقة أجزائها، مع كل مرور فوق الرقع غير المستوية من المدرج الرملي للمطار، مما أبرز علامات عدم الارتياح على قسمات وجه
عبد الله.

حياته كذلك أكسبته شعورًا دائمًا بعدم الارتياح..

أمه هندية الجنسية، لا يعرف لها بخياله أي ملامح؛ فقد كان الشيخ حسن يرفض تمامًا ظهور أي صور لها، حتى إنه مزق كل الصور التي حملتها معها من مومباي إلى جدة بعد زواجهما؛ لاعتقاده الجازم بحرمة تصوير المرأة.

توفيت أم عبد الله بعد ولادته بفترة قصيرة متأثرة بحمى النفاس.. تركته وحيدًا مع قسوة وجبروت الشيخ حسن، الذي لم يتعرف على حنان الأبوة، سوى مع عبد اللطيف، ابن درويشة، الزوجة الثانية للشيخ حسن.

لم تُولِهِ درويشة أي اهتمام، بل كان جُل تركيزها على الشيخ حسن وطفلها منه، عبد اللطيف.

كانت حاجة عبد الله للحنان وراء التصاقه بزينب، الجارية الحبشية السمراء، التي ساده اعتقاد جازم بأن الشيخ حسن قد عقد قرانه عليها سرًّا بواسطة صديقه الشيخ بكر، مأذون حارة الشام.. فقد كان الشيخ حسن كثيرًا ما ينتزع زينب من عبد الله قسرًا في ليالي جدة الرطبة الموحشة..

مع انسياب الطائرة السلس فوق بساط السماء، ومشاهدته السحب عن قرب، لأول مرة في حياته، عاد الهدوء إلى عبد الله رغم تزايد جلبة الركاب وطاقم الطائرة، وحركتهم المستمرة على الممر الفاصل بين صفي مقاعد الطائرة الصغيرة..

واصلت الذكريات اقتحام ذهنه وتحريك شجونه..

لم يمد له أخوه عبد اللطيف يد العون أثناء أزمته المالية الأخيرة، بل على العكس أقسم أيمانًا غليظة إنه واقع في ضائقة مالية، رغم علم الجميع بثرائه الفاحش.

لقد حرم القدر عبد الله من حسن الطالع.. كل شيء كان من نصيب عبد اللطيف..

كان عبد اللطيف هو صاحب الحظوة عند الشيخ حسن.. وهبه القدر، بسخاء، القبول الاجتماعي من الآخرين وخفة الدم وسرعة البديهة، ولم يكتفِ القدر بذلك، بل ساق السعد إليه بزواجه من أرملة ثرية تكبره بعشرين عامًا.. أحبته لدرجة الهوس، ويسَّرت له وضع لبنات الثراء الأولى، دون عناء، بل وقدَّم القدر لعبد اللطيف أعظم العطايا، بحسب رأي عبد الله، عندما حصد روح زوجته العجوز بعد صراعٍ مريرٍ مع تليُّف الكبد.

كان طقس يناير شديد البرودة، عندما أطل عبد الله بقامته الطويلة النحيلة من باب الطائرة، عند عتبة سلم النزول المعدني، بعد وصول الطائرة إلى مطار القاهرة الدولي، بآخر حي مصر الجديدة..

سارت سناء من خلفه، باتجاه المبنى الوحيد للمطار، المكون من طابق واحد به شرفة واسعة، يطل منها المستقبلون لتحية المسافرين.

استطاعت أن تلمح رستم، بطوله الفارع وضخامة قامته، وبياض بشرته، مقارنة بسمرة بشرة المستقبلين المصطفين من حوله..

أومأت سناء برأسها وابتسمت، عندما بَدَا لها أن رستم قد رآها، واستدار باتجاه السلم الداخلي لمقابلتهم عند بوابة الخروج، بعد انتهائهم من إجراءات الجوازات والتفتيش الجمركي..

احتوتهم جميعًا سيارة باكار زرقاء واسعة، تولّى رستم قيادتها، بينما تبعتهم سيارة نقل خفيف عليها حقائب سفر العائلة الحجازية..

ارتسمت ابتسامة تشبه الانبهار على وجه عبد الله وهو يجلس في المقعد الأمامي للسيارة، ويحيط بذراعيه ولده سعد الجالس على حجره، بينما جاوره طِلِب، ثم رستم أمام المقود.. أما البقية فقد كانوا مكدسين في المقعد الخلفي الواسع..

كانت الخضرة النضرة للميدان الكبير، بعد تجاوزهم الكلية الحربية ومدرسة الليسيه فرانسيه، وحشائش وأشجار الحديقة الطولية التي تتوسط شارع العروبة المُعبَّد حتى نهايته، والقصور البديعة المترامية بطول الطريق، مصدر مقارنة بذهن عبد الله مع الأزقة الترابية والمساكن الأثرية القديمة في حارة الشام بجدة..

قطع شروده صوت رستم وهو يقول:

- منزلكم قريب، على بعد خمس دقائق من هنا، في 10 حليم أبو سيف.. لا تحتاج لأكثر من عشر دقائق للوصول إلى مقر عملك في محل الحلويات بميدان الأوبرا، على أطراف المركز التجاري ومحال التسوق الكبرى بالقاهرة..

استدار بالسيارة يمينًا واستطرد قائلًا:

- عن يمينكم فندق قصر هليوبوليس، وعن شمالكم نادي هليوبوليس الرياضي، وبجواره فوق الهضبة منزلكم الصغير..

لا أحد من حولكم، سوى فيلتَي عائلة الصافي اللبنانية، وشعبان فريد، صاحب أكبر مصنع موبيليا بمصر كلها.. ستستمتعون بصفاء ونقاء الجو والهدوء هنا في القاهرة..

ابتسم رستم ابتسامة مقتضبة قبل أن يواصل حديثه قائلًا:

- لم أشأ استقبالكم بأخبار مزعجة، خاصة أنها المرة الأولى التي تزورون فيها القاهرة.. كانت هناك بعض المشاكل وقت هبوط طائرتكم على أرضية المطار.. رفض عدد من العمال تقديم الخدمات لأربع طائرات، تابعة للخطوط البريطانية، كذلك تمرد رجال الشرطة في ثكنات العباسية، تضامنًا مع زملائهم، الذين يُقال إنهم تعرضوا للقتل والتعذيب في الإسماعيلية..

توقف بالسيارة أمام باب حديدي لفيلًّا متوسطة الحجم، بها شرفة أمامية بعرض المبنى، وحديقة داخلية تحيطه من كل جانب، مزروع بها اليسير من النباتات والحشائش..

دلف الجميع إلى الداخل، وسارع الأطفال بالركض على الأرضيات الخشبية للغرف، ما أحدث ضجيجًا عاليًا، دفع رستم إلى سرعة تعريفهم بأرجاء المنزل ومحتوياته، قبل أن ينصرف باستعجال إلى الخارج..

لم تمضِ أكثر من ساعة، حتى دق جرس الباب الخارجي للبيت، فتوجَّه عبد الله نحوه بتوجُّس، وعندما فتح الباب وجد رستم أمامه يكسو وجهه مزيج من الهلع والحزن وهو يردد:

- القاهرة تحترق.. النيران تشتعل في كل مكان.. لم أتمكن من الوصول إلى ميدان الأوبرا.. ولذلك اضطررت للعودة إلى هنا.

2

أخذت سناء بخاري تنفث دخان سيجارتها بهدوء، فوق المقعد الهزاز في الشرفة الأمامية للمنزل، بينما وقف سعد عبد الله عند الحاجز الفاصل بين الشرفة والحديقة، يتأمل المخلفات السوداء الصغيرة المتطايرة في الجو والناجمة عن حريق أمس..

كان عبد الله يعتقد أن سعد مشروع مفكر أو أديب كبير، إن حَسُن إعداده.. فقد كان دائم الشرود والتفكير، وكثيرًا ما كان يتوقف لمدد طويلة فيما بين عباراته المتتابعة، ربما كان لالتقاط أنفاسه، من أثر مرض الربو المزمن، أو لخجله الشديد.. وكان سعد أحول العينين، يرتدي نظارة طبية بصفة مستمرة، وكثيرًا ما كانت النظارة تتحطم عند لعبه مع بقية أطفال حارة الشام في جدة.. وعندما كان يفعل ما يغضب والده منه، يثور عبد الله ويصيح قائلًا:

- أحضروا لي أحول الكلب هنا على الفور..

ربما نعت والده له بأحول الكلب وانتقاداته المتواصلة جعلته يعتقد أنه دميم الخلقة مقارنة بإخوته، وبالتالي تسببت في خجله الشديد، واحمرار وجهه، وتنكيس رأسه الطويل أرضًا، كلما تحدث إليه أحد.. وعمَّقت إحساسه بالعزلة نزلات الربو التي يُعانيها، وانعدام شعوره بأبوة عبد الله، وتشتت حنان لولوة الزهراني بين الأبناء الثلاثة وفاطمة..

كانت لولوة، بسبب التربية المحافظة المتشددة لأمها سناء بخاري، تعتقد أن رجل البيت هو كل شيء، وله الأولوية المطلقة في تلبية مطالبه واحتياجاته، على حساب الجميع، بما فيها متطلباتها هي ذاتها.. أما الجدة سناء، فقد كانت تميل بوضوح نحو الحفيد البِكري طِلِب..

السماء فوق رأس سعد كانت ملبدة بسحب سوداء داكنة، يحسب المرء أنها نذير هبوط أمطار غزيرة، غير أنها لم تكن سوى تجمع دخان حريق القاهرة..

ذكرت جريدة «الأهرام»، التي كانت تطالعها سناء في ذلك الوقت ببطء، في محاولة فضولية منها وإصرار على تفهم كل ما يدور حولها، أنه خلال ساعات قلائل التهمت النار نحو 700 محل وسينما وكازينو وفندق ومكتب ونادٍ في شوارع وميادين وسط المدينة.

ابتسمت سناء ابتسامة خبيثة عندما تذكرت وسط مطالعتها ما قالته بعفوية لعبد الله وهم يتناولون إفطارهم الجماعي في الصباح الباكر:

- إنكم فأل سيئ على مصر يا عائلة رجب!

لم يرُقْ تعليق سناء لعبد الله، غير أنه آثر الصمت.

كان في قرارة نفسه يشعر أن سناء عبء مالي ونفسي عليه، ولكن لا حل أمامه. تعيش مع ابنتها وعائلتها، وقلبها معلق

بمدينتها بُخارَى، وطفولتها، والرفقاء، وسراب ذكرياتها هناك..

اتجه عبد الله، بدلًا من الخوض في جدل صباحي مع سناء، إلى غرفة نومه للاستعداد لاستقبال رستم سعيد الذي أمضى ليلته في أحد الفنادق بالكوربة خلف فندق قصر هليوبوليس..

في الطريق إلى ميدان الأوبرا، نظر رستم إلى عبد الله، وقال إنه قرر تمليكه 10 حليم أبو سيف، مقابل أقساط يستقطعها من راتبه الشهري.

لم يمثل مبلغ الخمسة آلاف جنيه، التي حددها رستم كقيمة للفيلا، أي إزعاج لعبد الله.. على النقيض من ذلك، أزاح قرار رستم عن صدره قلق البحث عن سكن لعائلته الكبيرة في القاهرة التي لا يعرف فيها شيئا، علاوة على توافر بعض المال لديه من قيمة بيع أرض الرويس بجدة..

لقد قسَّم هو ولولوة الفيلا إلى ثلاث مناطق طولية متوازية، المنطقة الأولى بغرفها الثلاث الشمالية.. الغرفة الأولى لنومهما مع حمَّامهما الخاص، والغرفة الثانية المجاورة كانت من نصيب طِلِب وأمين وسعد؛ حيث يرقدون ليلًا متجاورين بعرض السرير الخشبي الطويل، أما الغرفة الثالثة، المطلة على الشرفة الأمامية، فكانت لسناء وفاطمة، وبين الغرفتين حمَّام واسع لهم جميعًا..

وتكوَّنت المنطقة الطولية الثانية من قاعة الطعام، ثم غرفة المعيشة، وصولًا إلى قاعة استقبال الضيوف الواسعة نسبيًّا، التي

تؤدي من خلال بابين خشبيين عاليين (شيش) إلى شرفة غرفة نوم سناء وفاطمة، المطلة على حديقة المنزل الأمامية..

بينما شملت المنطقة الطولية الأخيرة باب الدخول، وغرفة الخادمة وحمَّامها، والمطبخ الموصل إلى سلم الخدم الخارجي للفيلا، الذي ارتأته سناء مكانًا ملائمًا لوضع الثلاجة الخشبية للأسرة..

لقد لمَّح له رستم أن السيارة الباكار الزرقاء هي هديته المتواضعة لأسرة عبد الله، ولكن بعد أن يدبر له السائق المناسب..

لم يَقُد عبد الله سيارة في حياته، يخاف منها، ربما بسبب ما كان يسمعه من زملائه في العمل بمصنع الزيوت والصابون من حوادث مؤلمة لركابها.. كما كان لضربات السوط السوداني أكبر الأثر في شعور عبد الله المستمر بالخوف من كل شيء.. يخاف حتى من أفعال لم يرتكبها إلا بخياله.

يخاف عقاب الشيخ حسن.. أو القدر.. أو الناس من حوله.

ليس هناك مَن يحميه..

أمه ماتت وأخذت حضنها الدافئ معها.. أخذت معها الشعور العميق بالأمان.

حتى الجارية الحبشية انتزعها الشيخ حسن منه..

توقفت السيارة عند تقاطع شارعي إبراهيم باشا وفؤاد باشا، وهبط الركاب إلى الرصيف، الذي لم يترك عمال النظافة عليه - منذ الصباح الباكر - أي آثار لبقايا حرائق أمس.

على الرغم من غسل الشارع يوميًّا بالماء والصابون، فقد بدا جليًّا لعبد الله أن حشودًا من البشر قد مرَّت بالمكان، وخرَّبت ودمَّرت وحرقت الكثير..

كان السواد يحيط بمعظم واجهة كازينو «أوبرا»، وتظهر آثار السلب والنهب والفوضى في فندق «كونتيننتال»، والعديد من المتاجر، ومكاتب الشركات القريبة من المكان..

كانت هناك دبابة على مقربة من محل توزيع حلويات رستم سعيد، بعد نزول الجيش إلى الشوارع، قبيل غروب أمس، وإعلان الأحكام العرفية في البلاد..

كان شارع إبراهيم باشا شبه خالٍ من السيارات والمارة، فلم تكن القاهرة قد استيقظت بعد من ليلة حالكة السواد في تاريخها العريق..

ولحُسن طالع رستم، لم يُصَبْ محله بأي أضرار. كان اثنان من عماله، إبراهيم وعلَّام، يقفان خلف طاولة عرض أصناف الحلويات لاستقبال رستم ومدير المحل الجديد عبد الله، بينما وقف العم حيدر، المسئول عن النظافة وخدمة العاملين بالمحل، في الركن البعيد يتابع ما يحدث في هذا الصباح المميز..

أشار رستم إلى مقعد، أمامه خزينة، يتوسط المسافة بين مائدة الحلويات الطولية وباب المحل، وفي مواجهة عدد قليل من مناضد الطعام المعدة لمن يرغب في تناول الحلويات داخل المحل، وقال موجهًا كلامه لعبد الله:

- هذا موقع جلوسك لمراقبة سير العمل ومحاسبة الزبائن، وسيقوم إبراهيم وعلام وحيدر بتلبية كل طلباتك وأوامرك.. فأنت هنا، منذ هذه اللحظة، سيد هذا المكان، والمسئول عن إدارته ونتائجه..

بعد انصراف رستم، التفت عبد الله إلى حيدر قائلًا:

- فنجان شاي يا حيدر، الله يسلمك..

وكأنه تذكر شيئًا، فابتسم باقتضاب قائلًا:

- أنا أشرب الشاي الشنكاريسي فقط!

لم يكن الشاي الشنكاريسي، بحسب دائرة معارف عبد الله، إلا طريقة سعودية أصيلة لإعداد الشاي.. يأتي عم حيدر بالماء المغلي في إبريق متوسط الحجم، ابتاعه عبد الله خصيصًا لهذا الغرض.. يضع
عبد الله ورق الشاي الأسود فوق الماء المغلي، ثم يُقلِّبه طويلًا ويقفل غطاء الإبريق ويتركه ليختمر، بأن يغطيه بمنشفة وجهه التي كان يستخدمها كلَّما ذهب إلى الحمَّام، وعند الوضوء للصلوات الأربع الباقية من اليوم..

كان العمل متواصلًا في المحل من العاشرة صباحًا وحتى العاشرة مساءً، بعدها يعود عبد الله إلى 10 حليم أبو سيف منهكًا ومستهلك القوى بالكامل..

تمر بذهنه، خلال جلوسه الطويل خلف الخزينة بالمحل، خواطر عديدة، قد يكون بعضها سلبيًّا.. يتخيل أحيانًا أن رستم سعيد استغل حاجته للمال، ولم تكن المسألة «فزعة إنسانية» - كما يُقال في جدة - لفعل الخير ومساعدة الآخرين..

تتمدد شكوكه لإقحام آخرين في الموقف..

يتصور أنه ربما قد تم ذلك بالتواطؤ مع سناء، لنصرة قريبها المهاجر إلى مصر..

سلسلة من الظنون المتتالية، لم يجد أمامه مَنْ يشكو له قسوتها، بعد فراقه عن سليمان أفندي، صاحب مصنع المياه الغازية في جدة..

بعد تناوله الشاي الشنكاريسي، يفتح دفترًا أمامه، ويتناول قلمه الكُوبيا، ويحسن تشذيبه بموسى حلاقة صغير وحاد في درج الخزينة، ثم يبدأ الكتابة. أثناء ذلك تكون عيناه الجاحظتان تتابعان بشكل منتظم العاملين بالمحل وجمهور المتعاملين معه..

وقد كان للأحداث أن تمر بسلاسة وتكرار منتظمَين داخل محل رستم لتوزيع الحلويات، لولا تسلل شعور قوي لدى العاملين

بتغيُّر معاملة رستم لهم، خلال زياراته القليلة للمحل، وكأن هناك مَنْ دَسَّ الفُرقة بينهم..

اتضح الأمر جليًّا عندما قرر رستم إنهاء خدمات إبراهيم، بعد اتهامه بسرقة بعض علب الحلويات من مخزن المحل..

عبد الله هو مَنْ بلَّغ رستم بوقائع السرقات التي يرتكبها إبراهيم، وهو الذي أشار على رستم بضرورة فصله من العمل..

لم يشعر علام وحيدر بالرضا بعد فصل إبراهيم، بل تسلل إليهما الخوف وعدم الأمان وكراهية عبد الله..

قال عم حيدر لعلام، وهما يسيران بعيدًا، بعد انصرافهما من المحل بنهاية دوام يوم من أيام الشتاء قارسة البرودة:

- الراجل ده مفيش في قلبه رحمة..

مرت بوجهه المتعب سحابة حزن قبل أن يستطرد قائلًا:

- نؤويهم في بلدنا وييجوا بعدها يطردونا من شغلنا؟!

كان نوعًا من السخط، عبَّر عنه عم حيدر بتلك العبارات المقتضبة..

ولم يكن عم حيدر بمفرده ساخطًا، بل كان المصريون بغالبيتهم ساخطين على الملك فاروق والحكومة والفساد المنتشر.

ليل القاهرة اليقظ أنذر بقلاقل سياسية وشيكة..

فمنذ أيام وجيزة، فشلت جهة مجهولة في اغتيال اللواء حسين سرِّي عامر، أحد قواد الجيش.. أعقب تلك المحاولة صدور منشورات من مجموعة أطلقت على نفسها اسم «الضباط الأحرار»، دعت إلى إعادة تنظيم الجيش وتسليحه وتدريبه بجدية، بدلًا من اقتصاره على الحفلات والاستعراضات.. كما دعت الحكام إلى الكف عن تبذير ثروات البلاد، ورفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة..

هذه التحركات الجديدة داخل النسيج المصري بدأت تستقطب أفراد الطبقة الكادحة مثل علام وحيدر..

بالفعل، تحرك الجيش ليلة 23 يوليو 1952، وتم احتلال مبنى قيادة الجيش بكوبري القبة، وإلقاء القبض على بعض كبار القادة، الذين كانوا مجتمعين لبحث مواجهة حركة الضباط الأحرار.

وأُعلنت الثورة في مصر.

3

لم يكن شرود لولوة الزهراني، أثناء جلوسها على المقعد الخلفي في السيارة الباكار الزرقاء بقيادة السائق عبد العزيز، أو عبده، إلا لالتقاط أنفاسها.. إنها تلهث من تتابُع الأحداث وتغيُّر مناخ حياتها وإيقاعه اليومي..

لقد عملت منذ قدومها مع أسرتها إلى القاهرة على ربط الماضي بالحاضر والمستقبل، غير أن ذلك بات متعسرًا لصعوبة تداخل حلقات الربط..

كانت تحمل وتلد كل سنة على أمل تشكيل تركيبة مثالية من الذكور والإناث، ثم فُصل زوجها من عمله فتعطلت كل مخططاتها الأسرية.. بعد ذلك رزقه الله بوظيفة أخرى، في القاهرة هذه المرة، فعادت إلى محاولة إنجاز مخططاتها الأسرية المجمدة.. صاحبها سوء الطالع إلى القاهرة، لم يواصل القدر منحها إنجاب البنات، لم تحمل مجددًا. أيقنت أن الفيلا لن تكون أبدًا امتدادًا لسكن حارة الشام في جدة.. حافظت على مسافة ارتأتها مقبولة بين تقلُّبات خطوط الموضة وتمسكها الأصيل باحتشام ملبسها.

خُيِّل لها، بطموحها الجامح، أنها متميزة هنا، في هذا البلد الجديد والغريب عليها..

كانت في قرارة نفسها تشعر أن هؤلاء النسوة، هنا في القاهرة، لسن أفضل منها.. التحقت بمعهد «فيرا» لتعليم الخياطة، وحصلت بسرعة على شهادة التخرج بتفوق، وكانت تقرأ مع ولديها طِلب وأمين دروسهما، وتشاركهما في حل الواجبات اليومية. عادت إليها ذكريات كُتَّاب العمياء، حيث تعلمت مبادئ القرآن الكريم، وحفظت بعض سوره القصيرة، وعددًا من الأحاديث النبوية الشريفة، إضافة إلى ما يتعلق بذلك من الأمور الدينية.. كانت هي وزميلاتها يلعبن في دوائر وينشدن: «يا أبونا جانا الديب».

انتبهت إلى أنها في عام 1956 ميلادية..

ردَّدت بصمتٍ وهي تهز رأسها: «الأمور مختلفة الآن»..

فقد قامت بعد ستة أشهر من سكنها في 10 حليم أبو سيف بزيارة جانيت، زوجة إلياس الصافي جارهم اللبناني، تاجر الملبوسات النسائية..

شاركتها غربتها وتآلفتا بسرعة ومودة شبيهتين بما حدث مع شهيرة المصرية، زوجة شعبان فريد رجل الصناعة الشهير، جارها في شارع المحروقي الموازي لشارع حليم أبو سيف..

كانت تلتقط وتسجل وتعيد وتمارس كل ما يمكنها استيعابه من سلوكيات جانيت وشهيرة، حتى تملَّكها شعور بالقدرة على الوقوف بمفردها، والسير بين زهور وأشواك القاهرة.. تلك

المدينة القديمة، التي تجيد، بصمت، مشاهدة ومتابعة أجناس البشر تتفاعل داخلها..

لم يعكِّر صفو حياتها في مصر إلَّا ذلك المناخ السياسي المضطرب في كثيرٍ من الأحيان، بشكلٍ لم تألفه في حياتها الساكنة بمدينة جدة الساحلية..

كانت هناك محاولة لاغتيال جمال عبد الناصر، على يد جماعة الإخوان المسلمين، عندما أطلق عليه الرصاص أحد أعضاء الجماعة، وهو يخطب في ميدان المنشية بالإسكندرية، ثم إعفاء محمد نجيب من جميع مناصبه، وتولِّي جمال عبد الناصر السلطة..

وعلى الرغم من وقوع محاولة الاغتيال تلك قبل سنتين، فما زالت آثارها في داخلها، ولكن ليس خوفًا مثل حال عبد الله..

كانت لولوة شجاعة، شديدة المراس في كل المواقف العصيبة..

كان هناك نوع من القلق والتعلُّق بالزعيم العربي الجديد، صاحب الخطب الرنانة، التي يجتمع الناس بكل فئاتهم حول المذياع لسماعها في وقت إلقائه لها..

كانت خطب الزعيم منافسة بشكل جاد للحفلات الشهرية للسيدة أم كلثوم..

توقف عبده بالسيارة الباكار، خلف المجموعة الأخيرة من المباني المحيطة بمدرسة الليسيه، في شارعٍ موازٍ طوليًّا لشارع العروبة

المتجه ناحية مطار القاهرة الدولي..

قال عبده:

- الآن دورك يا هانم لقيادة السيارة.

لقد قررت لولوة تعلم قيادة السيارات.. عبد الله يهاب قيادة السيارات، ذلك شأنه، أما هي فليست أقل من جانيت وشهيرة..

* * *

كانت السيارة التاكسي السوداء في طريقها إلى مصر الجديدة، عندما التفت سائقها إلى عبد الله، القابع في المقعد الخلفي، الذي يتصبب عرقًا، كحاله عندما يخاف.. كان خائفًا بعد ما سمعه عن قرب وقوع عدوان ثلاثي مسلح من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر..

قال السائق:

- تبدو مثقفًا يا أستاذ..

استطرد بعدها:

- أريد أن أطرح عليك سؤالًا يحيرني..

ابتسم عبد الله باستياءٍ ولم يعقب.. غير أن السائق واصل حديثه قائلًا:

- أدت سياسات عبد الناصر المحايدة خلال الحرب الباردة إلى توتر العلاقات مع القوى الغربية، التي سحبت تمويلها للسد العالي، الذي كان عبد الناصر يخطط لبنائه.. رد عبد الناصر على ذلك بتأميم شركة قناة السويس، ولاقى ذلك استحسانًا داخل مصر والوطن العربي.. أليس كذلك؟

ازداد توتر قسمات وجه عبد الله دون أن ينبس، ما دفع السائق للتعقيب قائلًا:

- تعتقد أنني مباحث.. أليس كذلك؟

استطرد بعدها قائلًا:

- أرجو ألَّا تأخذك الظنون بعيدًا؛ فأنا رجل أقرأ بنهم كبير، وأتابع معظم محطات الراديو العالمية التي تذيع برامجها باللغة العربية، يطلق عليَّ أصدقائي المقربون لقب السائق الفصيح..

راق لعبد الله ما سمعه، غير أنه حافظ على حرصه مكتفيًا بابتسامة مختصرة، شجعت السائق على مواصلة حديثه قائلًا:

- ستقوم إسرائيل بمهاجمة سيناء، فيعبر الجيش المصري قناة السويس للذود عنها، فيقوم البريطانيون والفرنسيون بالتدخل وإنزال القوات التابعة لهما في منطقة قناة السويس، ومحاصرة الجيش المصري.. فتتدخل القوتان العظميان وتوقفان الحرب، وينسحب الجيشان المصري والإسرائيلي إلى مسافة معينة من ضفتي قناة السويس..

ضرب عبد الله كفًّا بكفٍّ مُعلقًا بشيء من السخرية المبطنة:

- لقد حللت المشكلة وأنت جالس هنا تقود سيارتك!

رد السائق قائلًا:

- أستاذي .. هذا سيعني أن مصر ستفقد سيطرتها على قناة السويس.. وما يحدث هو خديعة لعبد الناصر.. أتمنى من الله ألا يبتلع الرئيس الطُّعم.

واصل عبد الله صمته المطبق..

كان يخاف من التصريح بأي كلمة تمس الرئيس، يعتقد أن رجال عبد الناصر في كل مكان.. وما زاد من مخاوفه هو تحليل السائق، الذي ينم عن اطلاع ومعرفة، حتى إن لم يتفق معه فيما ذهب إليه، ساورته الشكوك في أن يكون ضابط مباحث برتبة عالية.. التفت بوجهه ناحية المارة في شارع رمسيس، كانوا يسارعون الخطى على غير المعتاد، وكأنهم خائفون مثله من الغارات الجوية الوشيكة الوقوع.. بعد وقوف التاكسي أمام المنزل.. دفع مبلغًا من النقود في يد السائق الفصيح، وبعد أن غادره، عاد ورمقه بنظرة خاطفة، قبل أن يتوجه إلى داخل البيت.. بحث عن لولوة فلم يجدها، توجه صوب المطبخ حيث مقر عمل سناء صائحًا:

- هيا يا أم لولوة.. لموا أغراضكم.. سنقيم في فندق بعيدًا عن مصر الجديدة.. أين لولوة؟

ألقت سناء بسكين تقشير البصل جانبًا وقالت:

- ما خطبك يا رجل؟ ذهبت لولوة مع عبده السائق..

لم يثبت عبد الله على حاله، بل أسرع الخطى إلى الداخل بغير هدى، ثم شرع يدور في أرجاء البيت يفكر فيما يفعله، وكيف يجمع شمل الأسرة بسرعة للرحيل من مصر الجديدة، قبل وصول الطائرات الحربية المغيرة..

مكثت عائلة رجب في بنسيون «لا فامييل» بشارع رمسيس حتى بداية نوفمبر، عندما تم إعلان وقف إطلاق النار..

تقاسمت أسرة عبد الله غرفتين واسعتين من غرف البنسيون؛ حيث يقضي أفراد الأسرة يومهم داخلهما، إلا عندما تطلق صَفَّارات الإنذار تنبيهًا ببداية الغارات.. عندها يتجمَّع رواد البنسيون بسرعة في صالة واسعة من صالاته، لا تلبث أضواؤها أن تُشعَل حتى يُعاد إطفاؤها مع تكرار الغارات..

كان عبد الله يرتعد من صوت القنابل والمدافع المضادة للطائرات، بينما تتمتم سناء بما تحفظ من آيات قرآنية، وتحتضن لولوة أبناءها بالتناوب واحدًا تلو الآخر لتخفف من فزعهم.. كان أكثر ما يخفف عنها متابعتها، من خلال الضوء الخافت المتسلل من السماء الصافية خلف نافذة الصالة الكبيرة، لرجل وامرأة يجاورانها في الصالة، على ما يبدو من حديثهما أنهما فرنسيان.. كانا كلما أطفئت الأنوار يلتحمان في قبلات حارة حميمة.. تذكرت خلالها ليلة زفافها إلى عبد الله، وحياءهما، رغم انفرادهما

ببعضهما تمامًا، والظلمة الدامسة لغرفة نومهما في حارة الشام بجدة.

4

كان أداء أمين رجب، الابن الثاني لعبد الله، مذهلًا لكل مَنْ شاهده يلعب كرة القدم في المستطيل الأخضر بنادي هليوبوليس الرياضي..

موهبة فطرية غبر مسبوقة في عائلة رجب..

لم يكن أحد من العائلة قد مارس أي نوع من أنواع الرياضة البدنية..

استقباله للكرة وإرسالها وتوزيعها والتحكم بها ذات اليمين وذات اليسار وتسجيل الأهداف وصنعها؛ جميعها كانت إبداعًا من إبداعات موهبة ذلك الشبل الصغير..

كان نحيل القامة للغاية، وطويلًا.. أنفه مدبب، وشفتاه رقيقتان، وعيناه عسليتان واسعتان..

لم يكن قد تعدى الخامسة عشرة من العمر، وقت أن انتحى به جانبًا الكابتن تامر عطية، مدرب كرة القدم بالنادي، لمفاتحته في أمر انضمامه إلى النادي الأهلي الرياضي..

كان الكابتن تامر قد توسَّم فيه موهبة يصعب تكرارها في الملاعب..

لم تُستشَر سناء بخاري في الأمر، ولم تفهم لولوة ما يتحدَّث عنه الكابتن تامر مع عبد الله رجب وولدها أمين..

كان عبد الله يرمق ابنه أمين بين الفينة والأخرى بنظرات إعجاب وامتنان، باعتبار أنه سيرفع اسم العائلة عاليًا.. تخيل أنه قد ينتقل بعد فترة للعب في السعودية، ويتبناه كبار رجال الأعمال ويصبح ثريًّا.. أن يبتسم القدر، ليكون أحد أفراد هذه العائلة البائسة ثريًّا.. حالة دنيوية تمناها طويلًا لنفسه، ولم تتحقق أبدًا، فتمنى لحظتها أن يراها على أحد من نسله..

على النقيض من تفوقه في كرة القدم، فقد كان أمين أكثر أبناء عبد الله تعثرًا في دراسته..

تقول جدته سناء: إن سيارة قد صدمته فارتطم رأسه بزير الماء أمام حوش المنزل، وذلك أثناء لعبه مع أصدقائه في حارة الشام.

لم يهتم أحد بعرضه على طبيب لعلاجه، مما تسبب في تخلفه العقلي..

في الواقع لم يكن متخلفًا عقليًّا، ولكنه من النوع الناقد الشتام، الذي لا يعجبه أي شيء في الدنيا..

كان مسيو فيليب، مساعد مدير مدرسة الليسيه، يلتقط عصاه من جوار مكتبه، بمجرد أن يرى أمين قادمًا مع أحد الأساتذة، لتأكده من أنه حتمًا قد ارتكب أمرًا ما يستحق عليه العقاب..

تورَّمت أذنا أمين من تكرار شد مسيو جوزيف، مراقب الطلاب، لهما، لكثرة مخالفاته لأنظمة المدرسة الصارمة..

حتى جاء اليوم الفاصل في تاريخ أمين في مدرسة الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة، عندما سار خلف مجموعة فتيات كن يتدربن في ملعب كرة السلة، ليدخل ساحة قسم البنات الممنوع على الطلاب ارتيادها.. ومن هناك، تسلل مجددًا إلى أحد فصول البنات، ليختلط بمجموعة منهن، كن يقضين فترة الراحة في تجاذب أطراف الحديث..

استطاع أمين، بسهولة، الاندماج معهن برواية النكات الطريفة والمسلية التي يحفظها عن ظهر قلب، حتى لمحته مدام جوزيف، المراقبة المتشددة.. فأخطرت بسرعة زوجها، مسيو جوزيف، مراقب قسم الطلاب، الذي أرسل اثنين من حراس البوابات إلى مكان وجود أمين؛ حيث أغلقا عليه ومجموعة الفتيات باب الفصل من الخارج، لحين وصول مسيو فيليب، مساعد مدير المدرسة.

قرر مسيو لوكونت، مدير المدرسة، بناء على ما عرضه عليه مسيو فيليب، فصل أمين بشكل فوري، واستدعاء لولوة الزهراني لتسلمه..

التحق أمين بعدها بمدرسة خاصة صغيرة مجهولة الملَّاك، ولا تتمتع بقدرٍ مقبولٍ من السمعة الطيبة، لاستكمال المرحلة الثانوية، غير أنه واصل مسيرته هناك، وتكرر رسوبه في الثانوية العامة..

كانت التجربة الأولى لأمين مع النادي الأهلي فريدة من نوعها؛ فقد رافق تامر عطية لمقابلة مصطفى عبد العزيز، مدرب فريق الناشئين تحت 18 سنة في النادي الأهلي، الذي اقترح تجربته بشكلٍ عمليٍّ أمام جماهير النادي، في المباراة الودية التي سيلعبها فريق الناشئين مع نظيره بنادي الترسانة، قبل المباراة الرسمية بين فريقي الأهلي والأولمبي السكندري.. امتلأت جنبات ملعب النادي الأهلي في الجزيرة بجماهيره الغفيرة منذ الصباح الباكر، وكان ضجيج كلامهم وصياحهم يُسمع من حديقة الشاي بالنادي..

زأرت الجماهير عندما لمحت فانلة حمراء يرتديها كابتن فريق الناشئين، خلف باب غرفة خلع الملابس تمهيدًا لهبوط الفريق إلى أرض الملعب.. كان زئيرًا مرعبًا ارتعدت له جنبات أمين، فركض خلف أفراد الفريق، لا يشعر بأي جزء من أجزاء جسده، وكأنه مخدر بالكامل..

لم تمضِ أكثر من نصف ساعة من عمر المباراة، حتى حلَّقت الكرة عاليا فوق رأس أمين، بعد أن قذف بها الجناح الأيمن للفريق باتجاهه قرب خط «الستة ياردة».. قفز عاليًا، ومد ساقه الطويلة باتجاه الكرة، وبمشط قدمه غيَّر اتجاهها لتسكن شباك مرمى فريق نادي الترسانة..

لم يسمع بحياته أجمل من تلك الصرخة المدوية، التي أطلقتها الجماهير.. عندها قفز أفراد فريق الناشئين فوقه لتقبيله وتهنئته بالهدف البديع..

قرب خط التماس، التفت مدير الكرة بالنادي صوب مصطفى عبد العزيز وقال له بلهجةٍ آمرةٍ وصوتٍ خافتٍ:

- لا تنَم الليلة قبل أن تحصل على توقيع هذا الشبل الرائع في كشوف النادي..

* * *

كان أمين جالسًا على سجاد الأرضية ترقبًا لإقامة شيخ مسجد الكوربة صلاة الفجر.. عدل أمين من مساره السلوكي، من انفلاتٍ تامٍّ إلى توجُّهٍ دينيٍّ عميقٍ بعد انضمامه إلى فريق الناشئين بالنادي الأهلي.. وحمَّسته سناء على التدين بدفعه إلى أداء فروض الصلاة جماعة في المسجد القريب.. فكان من النادر أن يتخلَّف عن أي صلاة، ما دفع بشيخ المسجد إلى أن يطلق عليه لقب الشيخ أمين..

في فجر ذلك اليوم، بينما كان أمين منشغل البال بقضية سن زواج المرأة في الإسلام، قطع استغراقه في التفكير داخل المسجد ميل رجل في الأربعينات من العمر نحوه متسائلًا:

- ألن تُصلي ركعتي السنة؟

تقبَّل أمين، عن طيب خاطر، تذكير جاره له بصلاة ركعتي ما قبل الفجر، دون تذمُّرٍ من اقتحام الأخير لخصوصياته.. كان الرجل حاد الملامح، ثاقب النظرات، بشرته سمراء داكنة، وكأنه

من أهل الجنوب.. يتحدث بصوت أجش.. عرَّف نفسه بعد انتهاء صلاة الفجر قائلًا:

- أنا الدكتور ياسين عبد التواب، أستاذ الاقتصاد في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة.. انتقلت حديثًا إلى حي مصر الجديدة، وهذه هي أول صلاة لي بهذا المسجد..

أخذ يدفع بحبات مسبحته الطويلة قبل أن يفاجئ أمين مجددًا بقوله:

- تعالَ نُصلِّ لله ركعتين شكرًا له على تعارفنا في محبة الله ورسوله..

أذعن أمين، للمرة الثانية، لطلب الدكتور ياسين.. وبعد أن فرغا من أداء ركعتي الشكر، توجَّها إلى خارج المسجد؛ حيث بدآ مسيرة العودة من الكوربة وحتى دار كل واحد منهما..

في الطريق، وبعد لحظات طويلة من الصمت والتمتمة المستمرة للدكتور ياسين، تساءل:

- ابن مَن يا أمين؟

- عبد الله رجب.

- وجدك؟

- الشيخ حسن رجب، مؤذن مسجد التقوى بحارة الشام.

- أين حارة الشام تلك؟

- في السعودية.. بمدينة جدة القديمة.

- ألست مصريًّا؟

- أنا سعودي.

- الله أكبر!

عقَّب الدكتور ياسين بسرعة بعدها:

- فهمت الآن..!

بدت بعض علامات الحيرة على وجه أمين، غير أن الدكتور ياسين سرعان ما استعاد انتباهه بقوله:

- لا أُخفي عليك، قالوا لي عندما استيقظت على صوت أذان الفجر: ستقابل شابًّا مباركًا ومميزًا..

دغدغت عبارة الدكتور ياسين أحاسيس أمين لوهلة قبل أن يتدارك قائلًا:

- مَنْ الذين قالوا؟

- ستعرف فيما بعد..

صمت برهة، ثم قال معقبًا بصوتٍ أكثر عمقًا هذه المرة:

- أنت حفيد الشيخ حسن رجب! الله أكبر..!

صافح أمين الدكتور ياسين بحرارة ومودة، بعد أن اتفق معه على اللقاء مجددًا خلال صلاة العشاء، في المسجد نفسه..

عند اقترابه من الفيلا، التفت أمين تجاه صوت عم محمود الفقري، كما يسميه أهالي الحي، جنايني الحديقة الطولية التي تتوسط الشارع، كان يقول متسائلًا:

- هل سمعت بما حدث يا بيه؟ انقلب السوريون علينا وأعلنوا الانفصال!

شعر أمين لحظتها، في هذا الصباح الباكر، بضياع حلم الأمس القريب.. كانت الأمة العربية جمعاء تحلم بوحدة أكبر بين دولها، وها هي الآن تتعثر مع أول تجربة لها..

ردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

فكر لوهلة في تعارفه الجديد مع رجل في الأربعين من العمر.. الدكتور ياسين ركَّز كثيرًا على جده الشيخ حسن.. تنامى إلى ذاكرة أمين أنه كان آخر من رأى الشيخ حسن من أحفاده، قبل وفاته.. لكنه يتذكر ملامح جده بصعوبة. كان الشيخ حسن بالنسبة له عملاقًا، بوجه مُدوَّر، ولحية كثيفة، حليق الشارب، بحسب ما

كان يراه من موقعه عند قدمي الشيخ.. لا يزال أمين يتخيل طاقيته البيضاء فوق صلعته المميزة..

قالت له لولوة ذات مرة، إنه كان يحلو للشيخ حسن مناداة أمين، بـ«العصاية» لنحافته المفرطة.. وعلى الرغم من قسوة الشيخ حسن الظاهرة وتجمُّد مشاعره، كان يحب «العصاية» حبًّا جمًّا..

عندما ذكر تلك الواقعة للدكتور ياسين في جلستهما بحديقة الشاي في نادي هليوبوليس الرياضي، التي كان يفضلها الدكتور لهدوئها وبُعدها عن جلبة أطفال وشباب النادي، أجاب الدكتور مبتسمًا، واثقًا تمامًا مما يقول:

- أعرف، بلَّغوني اليوم بذلك، إنه دائب الدعاء لك.. لنقرأ له الفاتحة الآن!

كان أمين قد بدأ الانقياد لتوجيهات الدكتور ياسين السلوكية المغلفة بوعظ ديني، غير قابل للمناقشة.. فقد تربَّى على أن هناك كثيرًا من الأشياء في الحياة لا تُناقَش.. بل تُطاع فحسب.. دعَّم هذا التصور كبر سن الدكتور ياسين..

نشأ أمين على مُسلَّمات عديدة، منها أن سن المرء واجبة الاحترام.. هذا بجانب مؤهلات الدكتور ياسين العلمية، وعمله في جامعة القاهرة العريقة.. كان الدكتور ياسين لا يتحدث إلا والمسبحة تتأرجح بيده. يُزين أحاديثه دومًا بالاستشهاد بعددٍ قليلٍ من الآيات القرآنية، التي يحفظها عن ظهر قلب، ويُرددها دون غيرها، ربما لأنه لم يكن يعرف سواها..

يطلب من أمين قراءة الفاتحة، ليس أقل من عشرين مرة في اليوم.. كذا الوضوء والصلاة ركعتين..

كل مرة بسبب جديد.. حتى أصبح الحفاظ على الوضوء تحدِّيًا يوميًّا يواجه أمين..

وقد توطدت العلاقة بينهما عندما مرض أمين وقام الدكتور بزيارته في منزله.. يومها أحضر مبخرةً وفحمًا وبخورًا، ذكر أنها من المدينة المنورة، وشدَّد على أن للبخور بركةً وقوةً تساعد على الشفاء بإذن الله..

كانت المشكلة التي تُقلق أمين هي حب الدكتور ياسين للطعام ونهمه الدائم..

تزايد ذلك بعد نمو علاقة الدكتور مع سناء، وطلبه المباشر منها إعداد مأكولات بخارية له ولأمين؛ لما لهذه المأكولات من بركةٍ وفضلٍ..

كان الدكتور يهمس دائمًا لأمين بأن سناء وليَّة من أولياء الله الصالحين.. لقد أكدوا له ذلك..

وفي بعض الأحيان يدعم هذا الادعاء بالجهر بأن رسالة قد وصلته، تؤكد أن سناء من أولياء الله الصالحين..

مع مرور الأيام وزيادة توطُّد العلاقة بين الدكتور ياسين وأمين، فهم الأخير مَنْ هؤلاء الذين يقصدهم الدكتور عندما يقول إنهم قالوا وأكدوا له..

كان ذلك عندما قام بزيارته لأول مرة في منزله، بالطابق الرابع، من العمارة الملاصقة لسينما «بالاس» الصيفية، على بعد خطوات من نادي هليوبوليس الرياضي..

كانت الشقة شبه خالية من المفروشات، باستثناء غرفة النوم، أما صالة المعيشة، فقد احتوت على كرسيين خشبيين وطاولة صغيرة، يستخدمها الدكتور للكتابة أو تصحيح أوراق طلاب وطالبات الكلية.. وكانت غرفة الضيوف خالية من المقاعد كذلك، وإن كانت مفروشة بالسجاد، وفي وسطها مسند ومصحف ووسادة يجلس عليها الدكتور في أثناء تلاوته للقرآن..

ما إن اتخذ أمين مجلسه على الكرسي الخشبي، حتى مدَّ الدكتور يده حاملًا زجاجة صغيرة، بها عطر المسك، قائلًا وهو يهز رأسه بهدوء:

- خذ قليلًا من المسك.. إنه من مكة المكرمة.

ثم قال، بعد أن تجوَّل ببصره في أرجاء الشقة:

- لقد ملأوا المكان هذا الصباح، كانوا في كل ركنٍ من أركان الشقة، يطيرون هنا وهناك!

صمت برهة، ثم قال:

- دعنا نقرأ الفاتحة على روح الشيخ حسن.. أوصوني بهذا اليوم!

فهم أمين من سياق الحديث أن الدكتور يتحدث عن الملائكة، ويؤكد أنه يلتقط إشاراتها، ويفهم مقاصدها وأفعالها، ولكن لم يُصرِّح له أبدًا بأي تفاصيل أُخرى، سوى تبرير كل ما يمر به من أحداث بإرادة الملائكة من حوله..

لم يكن طِلِب، الأخ الأكبر لأمين، مرحِّبًا بصداقة أمين ذي السبعة عشر ربيعًا، لرجل في الأربعين من العمر، علاوة على أن الدكتور ياسين لم يكن من أصحاب السيرة الحسنة في الكلية..

كانت الأحاديث الجانبية تسخر من خُزعبلاته وملائكته، وتؤكد ضعف قدراته المهنية، بدليل هجر معظم الطلاب والطالبات لمحاضراته.. حتى إنهم يُطلقون عليه في الكلية لقب «صديق الملائكة»!

ربما كان هذا ما دفع الدكتور ياسين لتوجيه أمين إلى السعي لدى أقاربه، لإيجاد فرصة عمل له في الجامعات الجديدة الجاري إنشاؤها في المملكة العربية السعودية، لعدم رغبته في الاستمرار مع رجال جمال عبد الناصر في الجامعة، الذين اتهمهم بالشيوعية والكفر والإلحاد.

5

كان رستم سعيد متجهم الوجه، عندما دلف على غير عادته من باب محل توزيع الحلويات في الصباح الباكر، ليأخذ مجلسه في مواجهة
عبد الله رجب بجوار الخزينة.. شعر عبد الله أن هناك مصيبة ما قد حدثت، فآثر الصمت.

تفرَّس رستم في وجه عبد الله ثم قال:

- لنحتسِ فنجانين من القهوة في حديقة جروبي بشارع عدلي**!** لن نتأخر كثيرًا.. بإمكان علام وحيدر تولي شؤون المحل لحين عودتنا..

لم يُبدِ عبد الله أي رد فعل، كان مشغولًا باستعراض الاحتمالات المختلفة لهذه الدعوة المفاجئة؛ إذ قد يكون أحد تفسيراتها رغبة رستم في إنهاء خدماته.. ربما دون أن يجرح كرامته أمام علام والعم حيدر**!**

في أحد أركان الحديقة الداخلية لجروبي عدلي، جلس عبد الله عن يمين رستم، وبدأ الرجلان حديثهما، بعد أن تبادلا التحية مع النادل، الذي أَلِفَ وجود رستم كل صباح لتناول وجبة إفطاره..

قال رستم:

- بالتأكيد تفاجأت بزيارتي اليوم، ولكن أجزم أنك قد سمعت خطبة جمال عبد الناصر أمس..

صمت لوهلة ثم أعقب:

- لم يغفل لي جفن، أعرف أنا هذه المقدمات، لا تنسَ أنني روسي الجنسية..

أجرى رستم بسرعة مسحًا بصريًّا للحديقة والجالسين إلى المناضد المجاورة، قبل أن يواصل حديثه بصوتٍ خفيضٍ، صعب على عبد الله تتبعه بدقة:

- بدأ عبد الناصر يُصدر سلسلة من القرارات الاشتراكية.. تذكَّر يا عبد الله أنه أسس قبلها الاتحاد الاشتراكي العربي.. هذا يعني توجُّهًا صريحًا نحو النظام الشمولي.. المختصر يا عبد الله: سأبيع كل ممتلكاتي لمن يشتري وأرحل.. تحادثت مع صديقٍ لي في بيروت.. سأعد العدة للرحيل إلى هناك.

* * *

السنتان التاليتان لهذه المقابلة المشؤومة مع رستم كانتا من أسوأ ما مر بعائلة رجب، سواء في جدة أو القاهرة..

باع رستم محل التوزيع بميدان الأوبرا، ومصنع الحلويات بطريق القاهرة - الإسكندرية الزراعي، لتاجر خُردة، وهو بدوره أنهى خدمات عبد الله وعلام وحيدر.. وحوَّل الموقع الفريد إلى محل لبيع الملابس، بشكلٍ ينافس سوق الشواربي للمنتجات المهربة..

غرق عبد الله في دوامة الحيرة والإحساس بالضياع، مع أربعة أبناء ولولوة وسناء.. فحاول بيع الفيلا، لكنَّ أحدًا لم يرغب في شراء 10 حليم أبو سيف.

الكل خائف من اشتراكية جمال عبد الناصر..

باعت لولوة كل ما تمتلك من مصوغاتها الشخصية، وما وهبته لها سناء بخاري. حاولت القيام بتفصيل ملابس للسيدات، بما كانت قد تعلمته في معهد «فيرا» في وقتٍ سابقٍ.. غير أن متطلبات السوق قد تبدَّلت تمامًا بالانتقال ناحية الملابس الجاهزة، سواء ما هو محلي الإنتاج، أو المهرب من الخارج عن طريق تُجار الشنطة..

عادت جانيت الصافي، جارتها اللبنانية، وزوجها إلى مسقط رأسيهما ببيروت.. بينما أُودع شعبان فريد السجن وصُودرت كل ممتلكاته؛ لثبوت علاقته بجماعة الإخوان المسلمين..

وجد عبد الله بعض العون في إعداد وتنظيم حسابات بعض المحلات وصالات العرض، غير أن عددها كان محدودًا للغاية، وأغلبهم كانوا يبخسون قدر مجهوده وأتعابه..

قُطِعت حبال الوصل مع مدينة جدة منذ سفره إلى القاهرة، ونسيه الأصدقاء والمعارف، أو تناسوه..

كانت هناك اتصالات محدودة مع أخيه عبد اللطيف، إلا أن الأخير توقف عن مراسلة عبد الله تمامًا بعد إصابته بشللٍ نصفيٍّ

أقعده عن الحركة..

هداه تفكيره وبحثه الطويلان إلى الكتابة لصديقه المصري سليمان أفندي، صاحب مصنع المياه الغازية بجدة، الذي طلب منه مهلة يبحث له فيها عن حل..

كان ما لديه من مال قد بدأ في النفاد، وغدا ما يتقاضاه من أتعاب مهنية غير كافٍ لإشباع جيش الأفواه الصغيرة في 10 حليم أبو سيف..

بدأت سناء في التفكير ببدائل، فكان قرارها بتقليص أنواع وكميات الطعام والشراب.. أصاب الأبناء الملل من كثرة أكل البطاطس وعِصي المكرونة بصلصة الطماطم، دون أي صنف من أصناف اللحوم.. أصبح جُلُّ طعامهم يأتي عن طريق الجمعية التعاونية الاستهلاكية، وما توزعه بالبطاقة التموينية من أغذية في نهاية كل شهر لسكان الحي..

كانت اللحوم بمصر توزع ثلاثة أيام في الأسبوع..

اقتصر أكل اللحوم والدجاج والسمك في البيت على عبد الله؛ لإيمان سيدتي البيت، سناء ولولوة، بأن عبد الله هو رب الأسرة والأجدر بالرعاية والمحافظة على صحته وطاقته، حتى يستطيع مواصلة إمداد الأسرة بما يلزمها من مال للوفاء باحتياجاتها الضرورية..

كان عبد الله يواري بقرص رغيف العيش الضارب إلى السواد صحن اللحم أو الدجاج أو السمك.. حتى لا تراه أعين الأبناء الجائعة والمشتهية من حوله.. واعتاد أن يلقي إليهم، بعد شعوره بالشبع، بما تبقى في صحنه من سقط الطعام.. فينقضُّوا عليه كالكلاب الجائعة، المسعورة..

كانت ملابس الأولاد تُتداول فيما بينهم على الشيوع.. وكثيرًا ما كانت تتقطع أحذيتهم من كثرة الاستعمال.. ولعل هذا ما دفع عبد الله، ذات ليلٍ، للجلوس على سجادة الصلاة بعد فراغه من صلاة العشاء، ليناجي ربه قائلًا بصوتٍ مسموعٍ:

- أُناجيك يا ربِّ وقد ضاقت بي الدنيا وتبعثرت كل آمالي.. لكن اغفر لي جهلي.. كيف يا مولاي تستطيع أن تساعدني وقد أُوصدت كل الأبواب في وجهي؟ ليس تشكُّكًا في قدرتك يا إلهي، ولكنه نداء يائس من عبدٍ بائسٍ..

ثم أجهش بالبكاء بهستيرية.. فسمع أصداء صراخه كل من في المنزل..

* * *

بعد مغرب اليوم التالي، دق جرس الباب الخارجي للبيت..

سارع طِلِب نحو المدخل، غير أن عبد الله نهره، خشية أن يكون الطارق أحد الدائنين، ثم ما لبث أن عاد، مشيرًا إليه بفتح الباب.

كان الطارق رجلًا في منتصف الأربعينات، قال مبتسمًا:

- هل الشيخ عبد الله موجود؟

حرَّك طِلِب رأسه بتردد، فعاد الرجل ليقول:

- قل له: سليمان أفندي من جدة.

* * *

بعد الأحضان والقبلات المشتاقة لصديق العمر، أخذ الصديقان يرويان ذكرياتهما القديمة والقريبة..

شاركتهما لولوة وسناء، ثم ما طفقا أن انفردا كرجلين متحابين في ركن من أركان قاعة الضيوف الواسعة، يستكملان الحديث عن شجونهما، حتى حانت ساعة رحيل سليمان أفندي، فعانق عبد الله مجددًا وهو يقول معلقًا:

- ألم أقل لك: «مصر دوشة»؟ هل صدقتني الآن؟

ضحك ضحكة عالية وانصرف بسيارته بعيدًا.. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي عاد جرس باب الفيلا يدق بقوة أفزعت عبد الله، فأسرع بنفسه نحو الباب وفتحه، فإذا برجل يرتدي ملابس بسيطة، تنُم عن تواضع مركزه الاجتماعي، يقول:

- عبد الله بيه رجب؟

هزَّ عبد الله رأسه، فواصل الطارق حديثه قائلًا:

- هذا المغلف من سليمان أفندي.

كان بداخل مغلف سليمان أفندي مبلغ ألفي جنيه، مساعدة منه لعبد الله في محنته.. مبلغ كبير جدًّا لم يحلم به، ولا بخُمسه..

تذكر عبد الله صلاته ورجاءه الله منذ يومين.. فرفع كفيه للسماء شاكرًا.

* * *

كان سعد جالسًا مع صديقه كرم ميخائيل، في كافيتريا كلية التجارة بجامعة عين شمس في المنيرة، عندما تعثر النادل، فسقط كوب القهوة التركي الصغير على سروال كرم، فانتشرت بقعة بنية داكنة واسعة بنسيجه الناصع البياض.. انتفض كرم، ووضع حافظته ودفتر مذكراته أمام سعد ريثما يعود من الحمامات القريبة.. غير أنه عاد مسرعًا بعد دقائق، وكأنه قد نسي شيئًا مهمًّا، وتناول بلهفة محفظته وغادر مرة أخرى متجهًا إلى الحمامات.. لم يُعِرْ سعد تصرف كرم التفاتًا، لانشغاله بالحديث مع أماني التي لحقت به بعد انتهاء درس اللغة الفرنسية بالكلية..

تربط سعد بأماني مصادفات متواصلة.. فقد قابلها أول مرة عند السلم الصاعد لمدرج المحاضرات، وهي تنتظر فتح الباب لدخول الطلاب والطالبات.

كان أول يوم له في الكلية.. تأكد منها أنه في الطابور الصحيح للدفعة الجديدة.. أخبرته أنها كذلك في أول يوم لها.. تحرك

الطابور صعودًا، فسار خلفها، حتى دخلت خلف دكة خشبية طويلة فتوقف، إلا أن ابتسامتها له أوحت بترحيبها بجلوسه إلى جوارها.. ولأن أماني من سكان جاردن سيتي، كان سعد يرافقها كل يوم بعد نهاية المحاضرات إلى باب عمارتها، ثم يتوجه بدوره إلى محطة الأُوتوبيس القريبة بميدان التحرير، في طريق عودته إلى مصر الجديدة..

نشأت بينهما ألفة سريعة، أحس سعد خلالها أن ارتباطًا ما قد يحدث بينهما، غير أن خجله منعه من البوح بخواطره تلك..

حافظ سعد على قوامه الرشيق طوال فترة دراسته في مدرسة الليسيه، واستمر على المنوال نفسه في الجامعة..

كانت أصوله الحجازية قد بدأت تبرز على وجهه المستدير، وعينيه السوداوين، ورموشه الطويلة.. وكان إطار نظارته الطبية السميكة يحجب في كثير من الأحيان حاجبيه الكثيفين، بيد أن قسمات وجهه الجادة شكَّلت صورة ذهنية مناقضة لطيبته المفرطة وحساسيته العالية.

كان كتومًا، لا يُبدي للغير أحاسيسه ومشاعره.. تعيق نوبات الربو القاسية سير حياته النشط، تلك النوبات التي كانت تتركه منهكًا، خائر القوى، عند كل عبور لها بصدره.. في فراشه المشترك، المكتظ به وبأخويه طِلب وأمين..

كثيرًا ما كان يعترض، أو يمتنع، أو يرفض أمرًا ما بشكل مفاجئ.. في أغلب الحالات، يكون قد ترك الأمر يتفاعل بداخله

لفترة طويلة.. لكن أي مراقب لسلوكه قد يعتقد أنه ما فكر في الأمر قبل ذلك مطلقًا..

بعد أسبوعين من واقعة كرم ميخائيل في كافيتريا كلية التجارة، حضر كرم لزيارة سعد في 10 حليم أبو سيف، دون إشعارٍ سابق.. طلب منه السير معه بالخارج قليلًا لرغبته في طرح موضوعٍ شخصيٍّ مهمٍّ عليه.. وفي أثناء سيرهما، قال له كرم:

- ما سأقوله لا يعرفه أحد..

صمت برهة، ثم قال:

- أثق في أنك كتوم.. لقد انضممت منذ فترة إلى التنظيم الطليعي، وهو تنظيم يهدف إلى تجنيد العناصر الصالحة للقيادة، وتنظيم جهودها، وتطوير الحوافز الثورية للجماهير..

لم يفهم سعد ما يقصده كرم من حديثه، فلم تكن من خصال الأول التدخل في شؤون الآخرين، حتى لو كانوا أصدقاء مقربين.

استطرد كرم قائلًا:

- منذ أسبوعين، تركت بعهدتك محفظتي ودفتر مذكراتي، وعدت بسرعة لاستعادة محفظتي.. أتذكر ذلك؟

- نعم أذكر.. يوم انسكاب القهوة على سروالك.

- كانت بطاقة التنظيم خاصَّتي في مكان ظاهر بالمحفظة، وخشيت أن تكون قد رأيتها..

رد سعد معترضًا:

- أنا لا أعبث بأغراض الآخرين الشخصية!

ألقى كرم بنظره بعيدًا في اتجاه تقاطع شارعي الميرغني والنزهة، ثم عاد قائلًا:

- اضطررت للإبلاغ عمَّا حدث..

- إبلاغ مَنْ؟

- إبلاغ المسئولين، كان لا بد من إبلاغهم بأنك قد علمت مصادفة أنني عضو في التنظيم..

عَلَتْ علامات الحيرة والقلق وجه سعد، غير أن كرم استبدل بنبرات صوته نبراتٍ أعمق وأكثر وضوحًا حين قال:

- إنهم يرحبون بك عضوًا في التنظيم، خاصة أنك تجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية..

ازدادت حيرة سعد، وفهم كرم ما يقلق صديقه، فأوضح قائلًا:

- الأمر بسيط للغاية، نستهدف قيامك بإبلاغ التنظيم بما يردده بعض الأجانب في مصر، وبالذات مَنْ سنحددهم لك لاحقًا..

ابتلع سعد رضابه، وكأن غُصَّة قد سدَّت حَلقه، وقال:

- تقصد أتجسس على الناس؟

- ليس هذا على وجه التحديد، وإنما هي خدمة لمجتمعك الثوري المناضل..

صمت سعد طويلًا، ثم التفت تجاه كرم قائلًا بحدَّةٍ غير مسبوقة:

- أعتقد أنني لا أستطيع ذلك..

* * *

بعد يومين، وقريبًا من غروب الشمس، وقف ثلاثة رجال عند مدخل البيت، وعندما تقدم طِلِب صوبهم، قال أوسطهم:

- أصدرت الحراسات أمرًا بمصادرة سيارتكم الباكار.. أحضر مفاتيحها على الفور.

6

كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة من ظهر الثلاثاء 6 يونيو 1967..

بعد فراغهما من اختبار قانون الشركات، فوجئ سعد وأماني بتجمع شباب عند بوابة الكلية، يهتفون بصوت جهوري:

- الله أكبر.. الله أكبر..

كان هناك شابٌّ غريب المحيَّا، لم يكن سعد أو أماني قد تواجها معه قبل ذلك بفناء أو قاعات المحاضرات في الكلية.. صاح الشاب الغريب من فوق كرسي خشبي:

- إن قواتنا المسلحة على مشارف تل أبيب، الله أكبر يا شباب، الله أكبر..

التفت سعد نحو أماني قائلًا:

- يبدو أن الحرب مع إسرائيل قد اشتعلت.. هيا بنا نغادر المكان.

رافقها حتى باب عمارتها، وانصرف كعادته إلى محطة الأوتوبيس؛ حيث غادر ميدان التحرير إلى مصر الجديدة..

كان الصمت التام يحيط بالفيلا عند دخوله إلى غرفة المعيشة، حيث جلس عبد الله رجب ولولوة وسناء يستمعون إلى برنامج

تحاوري، على ما يبدو في محطة «بي بي سي» البريطانية.. قال عبد الله بعد ذلك:

- المسألة بدأت منذ صباح أمس، عندما شنَّت إسرائيل هجومها الخاطف.

صمت لبرهة وكأنه يحاول فكَّ لغز أو طلسم معين، ثم أضاف:

- يقول ضيف البرنامج: إن الطائرات الإسرائيلية طارت على ارتفاع منخفض، وهاجمت كل المطارات الحربية والمرافق الجوية المصرية.. وفي ظرف ثلاث ساعات، كانت قد دمرت 150 طائرة حربية مصرية على الأرض..

عاودت سعد نوبة الربو، فأسرع الخطى باتجاه غرفة نومه؛ حيث تناول بخاخة الدواء ودفع برذاذها نحو صدره المنتفض..

ثلاثة أيام من الحزن المتصل، ثم عمَّت المظاهرات الشوارع، مطالبة الرئيس جمال عبد الناصر بعدم التنحي.

بعد مرور أسبوعين على نكسة الأمة العربية.. رنَّ جرس الهاتف في المنزل رنة متصلة لم تُسمع منذ وقت طويل.. كانت مكالمة دولية، قال المتحدث من الجهة الأخرى لعبد الله:

- عظَّم الله أجركم في أخيكم عبد اللطيف.. تُوفي إثر جلطة دموية في الدماغ..

أبلغ عبد الله الخبر إلى لولوة، فربتت بلطف كتفه، بينما شرعت سناء في تفرُّس وجهه من على مقعدها في غرفة المعيشة..

كان وقع خبر وفاة عبد اللطيف على عبد الله محل حيرة سناء، التي لم تلاحظ على زوج ابنتها أي مشاعر للحزن والأسى الحقيقيين على وفاة أخيه؛ بل على العكس بدت على وجهه علامات الانفراج والبشر المكبوتة..

عاد عبد الله موجهًا حديثه إلى لولوة:

- أعدي حقيبتي.. لا بد لي من السفر فورًا إلى جدة.

- سأذهب معك.

- بل تلحقينني بعد أن ترتبي أمور البيت..

كان عبد الله هو الوريث الوحيد لأخيه عبد اللطيف؛ حيث لم يتزوج الأخير بعد وفاة زوجته الأولى، وفضَّل مواصلة حياته بمفرده..

لحقت لولوة بزوجها بعد ثلاثة أسابيع، رتبت خلالها شؤون أسرتها في القاهرة؛ حيث خلَّفت مع والدتها كلًّا من سعد وفاطمة، لارتباطهما بالدراسة.. أما طِلِب، فقد رفض تمامًا مغادرة القاهرة لرغبته في العمل ومواصلة حياته بها.. وكان استمرار الدراسة بالنسبة لأمين رجب ضربًا من ضروب الخيال، كما أن مسابقات دوري كرة القدم قد توقفت إلى أجلٍ غير مسمى بعد نكسة 67؛ لذلك ألحَّ أمين على مرافقة والديه إلى جدة، بعد تمكُّن الدكتور

ياسين عبد التواب من الحصول على إعارة للعمل في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وتأكيده عليه بضرورة رفقته، بحسب آخر رسالة وردت إليه من الملائكة..

ولما كان طِلِب، الابن الأكبر، حاضرًا وغائبًا في الوقت ذاته، فقد نصَّب سعد نفسه رئيسًا أو رجلًا للبيت، وأصبحت سناء هي سيدة القصر، الحاكمة بأمرها لمجريات الحياة اليومية في 10 حليم أبو سيف..

* * *

كان طِلِب قد عاد إلى الفيلا بعد قضائه سهرته المعتادة، وقبع في أحد مقاعد غرفة المعيشة أمام جهاز التليفزيون، بينما أسرعت سناء باتجاه المطبخ لتُعد له عشاءه الذي يُفضل تناوله أثناء مشاهدة المسلسل اليومي الذي يتابع حلقاته مع سناء وفاطمة..

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة قبل منتصف الليل، عندما انقطع إرسال المسلسل ليظهر على الشاشة محمد أنور السادات؛ حيث قال بطريقته المميزة: «فقدت الجمهورية العربية المتحدة، وفقدت الإنسانية كلها، رجلًا من أغلى الرجال، وأشجع الرجال، وأخلص الرجال، وهو الرئيس جمال عبد الناصر، الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء اليوم 27 رجب 1390 هجرية، الموافق 28 سبتمبر 1970 ميلادية، بينما هو واقف في ساحات النضال، يُكافح من أجل وحدة الأمة العربية، ومن أجل يوم انتصارها».

عادت سناء من الداخل تحمل صينية عشاء طِلِب، فوجدته وفاطمة يطالعان بعضهما البعض، دون أن ينبسا بكلمة..

* * *

- سُبحان مُغيِّر الأحوال، من حالٍ إلى حال..

قالها سعد بسعادة بدت طفولية، أثناء سيره في مضمار كرة القدم بنادي هليوبوليس الرياضي، كعادته كل صباح.. لقد تذكر أنه، وإن لم تمضِ سنوات سبع على سفر عبد الله وقطاع مهم من العائلة إلى جدة، فإن تغيرات عديدة قد حدثت..

تولَّى محمد أنور السادات الحكم بمصر.. فقام بثورة سمَّاها ثورة التصحيح.. وأصدر دستورًا جديدًا لمصر.. وقرر الاستغناء عن 17 ألف خبير روسي في أسبوع واحد.. هؤلاء الدببة، لم يكونوا سوى عسكر سوفيت تجاوزوا سن التقاعد، وأُرسلوا إلى مصر للعمل كخبراء عسكريين، فتصادموا مع الجميع..

يذكر سعد كيف رفسه أحد هؤلاء الخبراء بقدمه، يوم أن ارتطم به دون قصد في حمَّام السباحة المكتظ وقتها بهم، مع زوجاتهم اللاتي
لا يختلفن عنهم في البدانة والضخامة..

زاد تدفق الدماء في عروقه عندما لاحت بذاكرته الحرب ضد إسرائيل في 6 أكتوبر 1973. استطاع الجيش المصري كسر

خط بارليف وعبور قناة السويس، في أول انتصار عسكري على إسرائيل.

ثم تبشير السادات مصر وشعبها بالانفتاح الاقتصادي..

تغيُّر آخر كان على مستوى أصغر؛ كان الجار الجديد محمد حسني مبارك، الذي استقر بفيلا كبيرة تبعد عن 10 حليم أبو سيف بأقل من 100 متر..

سناء هي كذلك تغيَّرت بعد تعديها الثانية والسبعين.. غدت أقل حجمًا ممَّا سبق، وزاد تقوس ظهرها، وبدأت ملامح تصلُّب الشرايين تزداد وضوحًا في تصرفاتها وردود فعلها.. لم تتغير عاداتها في شراء وتخزين عُلب السجائر، حتى يجدها طِلِب جاهزة له عند طلبها.. كما لم تنقطع هي ذاتها عن التدخين في الشرفة الأمامية لفيلا 10 حليم
أبو سيف، التي بدأت ترمز لها بـ«10» فقط، تماشيًا مع تأثير الثقافة الأمريكية في اختصار كل الأسماء.. تلك الثقافة الدخيلة، التي بدأت تتغلغل في نسيج الحياة المصرية الأصيلة، فتفسد كل جميل بها..

كانت تشكو لحفيدها سعد من قسوة فاطمة عليها، بمحاولاتها الدائمة منعها من دخول المطبخ، وجلبها لطاهٍ يأتي كل أسبوع مرة، ليطهو كل الوجبات في يومٍ واحدٍ.. أكدت له أكثر من مرة أن الأكل لا طعم له بعد تخزينه طوال الأسبوع في الثلاجة الجديدة ذات التبريد العالي..

كان سعد يحب جدته سناء حبًّا جمًّا، رغم تفضيلها لطِلب على الجميع.. هو يعلم أن فاطمة تفعل ذلك خوفًا عليها ومحبةً لها؛ لأن حواس سناء قد ضعفت لدرجة يصعب عليها معها تمييز مخاطر المطبخ المحتملة.. غير أن فاطمة لم تُدرك مقدار أهمية المطبخ في حياة امرأة، ألفت أن تكون رسالتها الطبخ والعناية بشؤون المنزل، وإحساسها العميق بأهميتها، كلما زادت حاجة أهل البيت إلى خدماتها..

لقد بدأت سناء تفقد عرشها المتوج، وتسببت معاملة فاطمة لها في تعميق شعورها بألا جدوى من وجودها في الحياة، وأن الأرض بدأت تنشق في الأفق لاحتوائها..

حرص سعد بشكل منتظم، بعد فراغه من تمرينه الرياضي الصباحي بالنادي، على زيارتها للاطمئنان عليها بعد زواجه من زميلة دراسته أماني، وانفصالهما بشقة سكنية في نهاية شارع الحجاز..

* * *

عبد الله تغيَّر حاله هو الآخر..

عاد إلى مسكنه القديم في حارة الشام بجدة، فوجده مختلفًا تمامًا عن صورته العالقة بذهنه عنه، وكأن الزمن قد داعبه بفرشاة عابسة، وألوان داكنة حزينة.. تآكلت الجدران والأثاث بداخله، بفعل الحرارة والرطوبة العاليتين للمدينة الساحلية، كذلك أسراب

النمل الأبيض التي تغذّت طويلًا على كل أخشاب دار الشيخ حسن رجب..

لم يكن هناك بُدٌّ من أن ينزل ضيفًا على صديق عمره سليمان أفندي، الذي حافظ على عُزبته طوال السنين الماضية.. خصَّص سليمان أفندي لعبد الله وعائلته جناح الضيوف في فيلته الكبيرة بمنطقة الحمراء، قريبًا من شارع التحلية.. وكأن القدر بنقله لأموال عبد اللطيف إلى عبد الله بالوراثة، حوَّل إليه حظَّ الأول في الحياة..

قدَّم سليمان أفندي أحد معارفه لعبد الله، كان مقاولًا إيرانيًّا مقيمًا في إمارة دبي، يرغب في استثمار فرصة الطفرة الاقتصادية الأولى في المملكة العربية السعودية.. عرض المقاول الإيراني على عبد الله هدم بيت حارة الشام، وتحويل أنقاضه إلى فندق يستهدف استضافة النزلاء من الطبقات دون المتوسطة، من زائري مدينة جدة.. على أن تكون ثلث الأرباح من نصيب عبد الله طوال عشر سنوات، ثم يؤول الفندق وما به من أثاث ومفروشات إلى عبد الله في نهاية المدة..

قبل عبد الله العرض المغري للمقاول الإيراني. ومع ميراثه من أخيه عبد اللطيف، تحوَّل بسرعة كبيرة من باحث عن لقمة يومه إلى عين من أعيان مدينة جدة..

7

في جدة، ازداد تقارب أمين رجب مع الدكتور ياسين عبد التواب..

تكررت لقاءاتهما في فندق الدار البيضاء، حيث يقيم الدكتور إقامة دائمة هناك..

تعدَّدت زياراتهما إلى مكة المكرمة للصلاة في المسجد الحرام؛ حيث كان الدكتور يُلح في كل مرة على أمين بالصلاة والدعاء أسفل ميزاب الكعبة، لما في ذلك من فضل ورحمة..

كان الدكتور، خلال الطريق من جدة إلى مكة المكرمة، يتلو بعض الآيات القرآنية، التي اعتاد أمين سماعها منه في القاهرة..

أما أثناء العودة، فلا يسمع أمين إلا صوت الشخير العالي للدكتور، بعد وجبات العشاء الدسمة التي يصر على تناولها في مكة المكرمة، على حساب أمين، بحسب أوامر ملائكته..

كان أمين مثل جدته سناء بخاري؛ لا يستطيع أن يفهم أحد سريرته، وكأنه يكتم سرًّا عظيمًا يخشى البوح به. لعل الدكتور ياسين كان بالنسبة له صديقًا يتعرَّف من خلاله على نوعٍ من أنواع التوجُّه الديني في المجتمعات العربية الحديثة.. أو كأنه وسيط الرحمة الإلهية المنشودة، في مجتمع تغيرت مفاهيمه وقيمه بقسوة شديدة واندفاع هادر، لم يكن مُهيَّأً من المنزل أو المدرسة أو من المحيطين به لمواجهته..

بات معتقدًا أن الدكتور ياسين يعلم، من خلال ملائكته، الطريق الآمن للخلاص..

لا يستطيع أحد وصف أمين بوصف محدد؛ فهو شديد الغموض والرغبة في إخفاء أحاسيسه، وربما الهروب من كل ما قد يمثل خطورة، ولو هامشية، على حياته الشخصية..

تقلَّب أمين بين قوالب شخصيات عدة.. كان في الحقبة المبكرة من المراهقة، ومباشرة قبل التوجه الديني المتشدد، أحد نجوم نادي هليوبوليس، الذي تتسابق على صداقته الفتيات المراهقات، والأبرز بين الفتيان في الحفلات الراقصة التي ينظمها النادي لأعضائه كل خميس.. كثير السهر مع أصدقائه، ويتسلل ليلًا من الشيش الجانبي، المطل على دالية العنب في الجهة الشمالية لـ10 حليم أبو سيف، خشية أن تضبطه جدته سناء وتخبر والده بذلك السهر الطويل.. لم يتمكن من الحصول على الثانوية العامة، ولم يعمل حتى عاد إلى جدة..

تغيَّر هو الآخر في مدينة جدة.. لقد تأقلم بسرعة مع الثوب العربي والشماغ والعقال، بل والمشلح كذلك.. وقام بإطلاق لحيته وشاربه، وبدأ ينتظم في جلسات ما بعد صلاة العشاء مع شيخ جامع التقوى بحارة الشام، وجمعٍ من بسطاء الحي العريق.. وبعد إلحاحٍ طويل، تمكن من إقناعِ عبد الله بافتتاح مكتب محاماة واستقدامِ شيخ من سوريا لمساعدته في إدارة المكتب، وتقديم الاستشارات الشرعية للراغبين بها، ثم غيَّر بسرعة من مسار المكتب وشرع في تقديم الاستشارات الشرعية المجانية لكثير من فقراء الحارة، فبدأ صيته يتعدَّى حارة الشام إلى الأحياء

المجاورة، وأخذ الناس يطلقون عليه لقب «الشيخ أمين»، حتى صدَّق هو نفسه بما يعتقدون.. وبعد فترة تجرَّأ، فأخذ يُصدر الفتاوى فيما يتعلق بالعلاقات الزوجية الحميمة لجمهوره من البسطاء، دون الرجوع إلى الشيخ السوري.. وأقنع عبد الله بوجوب تخصيص غرفة له بالمكتب، ليستقبل زوَّاره ومعارفه، وبالتالي تحمَّل الأب سداد كل نفقات المكتب..

بعد ذلك، بدأ يجلب إلى عبد الله أفكارًا ومشاريع لاستثمار ميراث عبد الله من أخيه، فسعد الأب بعودته إلى العمل المحاسبي والانشغال في مدينة لا مجال للحياة فيها إلا لمن يعمل..

ترك عبد الله شؤون الإدارة والعلاقات العامة والمشتريات لولده أمين، الذي نشط في تكوين علاقات مع العديد من رجال الأعمال والتجار..

كان أمين لا يتوانى عن الاتفاقات الجانبية السرِّية مع عملاء المكتب، وبرَّر لنفسه شرعية ما يفعل بترديده: «هذا حق الناس».

وكان قد تزوج من ابنة أحد التجار في بداية سنوات عمل المكتب، ثم تزوج، بعد أن توسعت أعماله، من سيدة مغربية قابلها أثناء قضائه إجازة قصيرة في الدار البيضاء.. وأغرته زوجته الثانية بافتتاح مطعم للمأكولات المغربية، وألحت عليه لاستقدام أخيها لإدارته.

بدأت قوى عبد الله في التلاشي، بعد إصابته بمرض السكري، وتزايد اعتماده على أمين..

انهمكت لولوة الزهراني من بعيد بمتابعة ومراقبة مَنْ حولها. كانت مشتتة بين أبنائها ووالدتها المسنة، فيما بين جدة والقاهرة. كان أكثر ما يشغل تفكيرها هو حال فاطمة التي أوشكت على بلوغ السابعة والعشرين من العمر ولم تتزوج ولم يتقدَّم أحد لخطبتها..

يعتقد عبد الله، وهذا ما كان قد كرَّره مرارًا خلال أحاديث قبل النوم مع لولوة، بوجوب عودة فاطمة؛ لعلها تجد نصيبها في مسقط رأسها؛ فأوضاع الشباب في جدة أفضل منها في القاهرة.. وقد يسعدها الحظ بالزواج من شخصٍ ميسور الحال، فلا تعيد شريط حياة البؤس والحرمان، التي عاشتها داخل عائلة عبد الله رجب في جدة والقاهرة..

8

تسللت سناء بخاري خلسة إلى المطبخ لإعداد البلوف والسمسا، اللذين تجيد طهوهما من الطعام الأوزبكي، وذلك بحسب رغبة طِلِب، الذي يرى استمرار إطلاق يدها في المطبخ بعيدًا عن حرص فاطمة المبالغ فيه.

تركت فاطمة جدتها سناء لشأنها.. وانتهزت الفرصة للوقوف مطولًا أمام المرآة الطولية المركبة على باب خزانة ملابسها، بعيدًا عن الاقتحام المفاجئ لسناء لغرفتها..

بداية خرف الجدة، خاصة بعد استقلال فاطمة بالغرفة الملاصقة للشرفة الأمامية، وانتقال سناء إلى غرفة عبد الله ولولوة بعد سفرهما إلى جدة.. كانا وراء الرقابة اللصيقة التي تقوم بها سناء على سلوك فاطمة وتحركاتها.

تُدرك فاطمة أن سناء امرأة محافظة، ذات أفكار قديمة متشددة، توقن كذلك أن قلب سناء معلق بحب حفيدها الأول طِلِب.. أما هي وبقية الأحفاد، فكانت تحبهم جميعًا كجدة لهم دون تمييز..

فاطمة، ذات الأعوام السبعة والعشرين، هي معشوقة أمها لولوة.. أما والدها عبد الله رجب فكانت مشاعره تجاهها متضاربة ومجهولة.. تشعر في بعض الأحيان أن أباها لا مشاعر له تجاه أيٍّ من أفراد الأسرة، وكأنه مُجرَّد من الأحاسيس تمامًا نحوهم.

قالت لها بديعة عبد العزيز، صديقتها المقربة وزميلتها في شركة «صوت وصورة» لإنتاج البرامج والمسلسلات التليفزيونية:

- الرجال يحبون شبيهات أمهاتهم..

لم تبحث فاطمة في ذلك مطولًا.. ولكن مرَّ بخاطرها ما قالته جدتها ناريمان، أخت الشيخ حسن، حول شبهها الكبير بجدتها الهندية.. لعل هذا التشابه هو سبب شعورها في بعض الأحيان بتصرفات عبد الله تجاهها، كأنه يعتبرها ملكية خاصة له، أو كأنه لا يريد فقد أمه مجددًا..

كانت فاطمة، رغم ميلها إلى البدانة، تتمتع بمسحة من الجمال الهندي الساحر والغامض في الوقت ذاته.. تحمل داخلها جاذبية تدفع الآخرين نحو الشعور بالارتياح معها، وقد بدأت مؤخرًا بفقد بعض وزنها الزائد، بعد التحاقها بمركز رياضي للسيدات، افتُتح في ميدان روكسي القريب.

* * *

لم يكن هذا اليوم المعتدل الحرارة من سبتمبر عام 1981 متميزًا عن غيره بالنسبة لفاطمة.. سوى أن شريف حمدي، مخرج برنامجها الترفيهي، سيقابلها لأول مرة خارج قاعات التصوير وغرفة الرقابة بشركة «صوت وصورة».. سيقابلها «شيري»، كما يحلو للعاملات في الماكياج تسميته، وذلك لتشابه حمرة خديه مع لون حبات الكرز.

كان الموعد في جزيرة الشاي بحديقة الحيوان. موعد غريب، في مكان غريب، ولكنه هو من اختار المكان، أما هي فقد حددت الزمان..

أوحى لها أنه يريد تعريفها بابنته وابنه، واصطحابهما إلى حديقة الحيوان، ربما لكي لا يثير شكوك زوجته حول نيته.. لم تفكر فيما هو أكثر من ذلك.

أخذت فاطمة تتأمل في المرآة عينيها الناعستين بلون الزيتون الأخضر.. ذلك اللون الفريد بين أعين الفتيات، الذي ربما كان هو ما جذب المخرج التليفزيوني إلى تأملهما لبرهة من الوقت، في أول لقاء بينهما خلال مرحلة المقابلات الشخصية بغرض انتقاء العاملات في الشركة..

شيء ما تشعر به المرأة عند حدوث حدث ما.. حتى لو كان لأول مرة.. أو لمرة واحدة لن تتكرر..

عيناه الزرقاوان البراقتان لم تفارقا وجهها طوال عقد المقابلة معها.. لم تتوغل فاطمة في محاولة تفسير شرود شريف حمدي وقت مصافحتها له.. اعتادت ألا تبالي بالخوض في التفاصيل والتفسيرات.. كانت - كما يبدو - تطفو على سطح الحياة.. أو ربما تعيش مثل فراشة.. تتنقل بين أسطح الأحداث والوقائع دون أي غاية على وجه التحديد.

كانت تفكر، وهي تمرر الفرشاة على شعرها الفحمي الناعم الطويل الذي يصل حتى منتصف ظهرها؛ أن تكرار لقاءاتها مع

شريف حمدي في ممرات وقاعات التصوير وغرف التحكم ربما سيثير غيرة زميلاتها بالشركة وحسدهن.

غير أن الخطورة التي تعتقد أنها ينبغي أن تكون محل تقديرها، هي مقابلتها له في مكان عام، مثل جزيرة الشاي بحديقة الحيوان..

وجود الطفلين قد يخفف من تفسيرات مَن سيشاهدونهما.. عملهما معًا خلال السنتين الماضيتين، تفاعلهما مع ما يُقدمانه من برامج تليفزيونية ترفيهية، وأحاسيسهما المشتركة بردود فعل جمهور المشاهدين، لحظات النجاح والتعثر.. جميعها حققت روابط خفية بينهما.. اشتدت أواصرها يومًا بعد يوم، دونما إرادة أي طرف منهما..

على الجانب الآخر، لن تستطيع كتم الأمر عن صديقاتها المقربات..

كانت غرفتها في الفيلا محطة لاستقبالهن ووداعهن في ذهابهن إلى، نادي هليوبوليس الرياضي، القريب من المنزل، وإيابهن منه.. كُنَّ كثيرًا ما يُفاجئنها بوجودهن نائمات في فراشها، دون أن تعرف متى وكيف تسلَّلن إلى غرفتها..

ومض بذهن فاطمة تساؤل مفاجئ حول تأثير علاقتها مع شريف على أخويها المقيمين معها بمصر.. في واقع الأمر لم يَرِدْ أخوها طِلِب بحسبانها أبدًا.. ولا جدتها سناء لشيخوختها..

مَنْ كان يعنيها حقيقة هو أخوها سعد، الذي كانت تربطه بفاطمة علاقة فريدة نوعًا ما.

تشعر فاطمة أن سعد هو أقرب إخوتها إلى نفسها، رغم أنه فوق رأسها، كما تُردد جدتهما سناء؛ لشدة تنافرهما في الصغر، الذي تحوَّل إلى حبٍّ أخوي وتفهُّمٍ عميقين بين الطرفين فيما بعد..

تشعر في قرارة نفسها أن القدر لم ينصف سعد تمامًا.

يعاني الربو، والحوَل الظاهر في عينيه، وسخرية الأب الدائمة منه، وعدم شموله برعايته وحنانه الأبوي.

حاولت فاطمة التقرب منه ورفع معنوياته داخل أسرة كبيرة مشتتة بفعل الأحداث والتقلبات المعيشية.

عبد الله يعيش آلام طفولته.

لولوة موزعة بين زوجها عبد الله صاحب المطالب التي لا تنتهي، وسناء المتمسكة بالتقاليد والعادات الأوزبكستانية القديمة، وثلاثة أولاد وبنت، كلٌّ يحتاج لأغطية عديدة من الحنان الدافق..

يكبر سعد فاطمة بعامٍ واحدٍ، ولكنه يشعر في قرارة نفسه أنها من أهم مسؤولياته الأسرية..

كان يتبرع من تلقاء نفسه بتحمُّل مسؤوليات مماثلة داخل الأسرة.. يعتقد أنه الوحيد بين إخوته القادر على ذلك..

أخذ على محمل الجد رعاية سناء وفاطمة، بعد سفر أبيه وأمه إلى جدة، بسبب وفاة عمِّه عبد اللطيف، دون أن يكلفه أحد بذلك.

لم يرسل له والده كلمة ثناء واحدة.. لا شيء سوى الانتقاد والسخرية.

* * *

ربما غرابة لون عينيها هي ما داعب خيال شريف، خلال قيادته لسيارته عائدًا إلى منزله في شارع رمسيس، قرب محطة قطارات السكك الحديدية بالقاهرة..

لقد وجَّه إلى فاطمة الكثير من الأسئلة حول منهج كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية، وما تعلمته في مدرسة الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة، وما اكتسبته من خبرات داخل أسرتها السعودية في القاهرة.. ربما ليس للتعمق تمامًا في محتويات إجاباتها، بقدر ما هو مجرد الإنصات، ومتابعة إيماءات وجهها الهندية الغامضة عن كثب..

على الرغم من تعدِّيه الأربعين من العمر بقليل، حافظ شريف على قوامه الرشيق ووسامته الخلابة، وكأنه نجم من نجوم السينما أو المسرح.. علقت على وسامته بديعة بقولها:

- لقد أخطأ الرجل طريقه إلى خلف الكاميرا.. كان بالتأكيد ينبغي أن يكون أمامها!

كان من أهل المنصورة، أبيض البشرة، ذهبي الشعر، ذا عينين زرقاوين أخَّاذتين.. طويلًا وممشوق القامة.. حريصًا على العناية بهندامه والتعطر بالقدر اليسير الكافي..

عشق الموسيقى والفن، السينمائي والمسرحي، مثل عشق والده له، كانت والدته عازفة كمان بريطانية، قدمت إلى القاهرة وعملت مع والده الموسيقار في دار الأوبرا المصرية.. تحابَّا وتزوجا بسرعة.. أقامت مع الأب ثلاث سنوات، أنجبت خلالها شريف، ثم عادت إلى لندن، وقررت من هناك ألَّا تعود مجددًا إلى مصر..

عندما دلف إلى شقته في شارع رمسيس، لم يجد شريف ابنته وابنه.. كانت هناك سيدة جالسة أمام التليفزيون، وجهها عابس، لم تشعر، على ما يبدو، أو تجاهلت دخول شريف إلى الدار..

بعد أن سألها عنهما، أجابته شهيرة الأشرم أن ولديه قد ذهبا إلى فراشيهما، ثم عادت لمتابعة شاشة التليفزيون مرة أخرى بالوجه العابس نفسه، والخرس الزوجي البيِّن..

9

هبط طِلِب من عربة المترو في محطة تريومف على مقربة من مدرسة الليسيه في مصر الجديدة.

ورث طِلِب عن والده كراهية قيادة السيارات، توجَّه نحو العمائر القريبة قاصدًا شقة عم مدبولي حسنين، صديق الشباب، كما كان يردد المحيطون به.

عم مدبولي موظف إداري في مطار القاهرة الدولي.. مسالم..
لا يتحدث مطلقًا مع أحد إلا فيما ندر.. كثير التأخير عن مواعيد العمل والغياب خارج المكتب.. يؤدي ما يُطلب منه من أعمال ببطء، ولكنه ينجز ما يعتقد مدير المكتب أنه مناسب لعمره القريب من سن المعاش..

حياة عم مدبولي العمل، وجلسات الدماغ، كما كان يسميها..

يقول للشباب من حوله:

- الدماغ هو أهم ما في الحياة!

الدماغ الذي كان يريحه بجلسات الحشيش.. حيث يجتمع عم مدبولي مع ضيوفه، حول طبلية خشبية عتيقة، عليها صينية، فوقها رؤوس بنية صغيرة من الفخار.. في منتصف دائرة الرؤوس الفخارية الصغيرة، علبة معدنية قديمة، منثور بداخلها

قطع الفحم المشتعل.. التي عادة ما يعدها عم مدبولي بعد المغرب، قبيل حضور أصدقائه الشباب..

يتبع عم مدبولي إجراءات محددة في الإعداد لجلسات الدماغ: يغسل الشيشة لإزالة آثار الليلة السابقة، ثم يملأ ثلثيها بالماء بعد إضافة قليل من ماء الزهر أو الورد بحسب ما يتوافر لديه.. يُدخل الأنبوب في فارغة الشيشة بإحكام، ويتأكد من عدم وجود أي تنفيس.. يعمل بعدها على إدخال الطرف الخشبي للخرطوم بإحكام في فتحة الأنبوب الجانبية، ويضع الصحن على رأس الأنبوب.. يقضم قطعة الحشيش الأم بطرف فكه الأيمن الأمامي، ويقسمها إلى أجزاء صغيرة.. يختتم بعدها الإجراءات الروتينية اليومية، بحشو الرؤوس الفخارية بالتبغ، وعليها أجزاء الحشيش الصغيرة.. يدفع بأحد الرؤوس الفخارية فوق الصحن أعلى رأس الأنبوب، تمهيدًا لوضع الفحم المشتعل على التبغ والحشيش عند حضور جمع الشباب..

لم يكن عدد الشباب، أصدقاء عم مدبولي، يتعدى أربعة أو خمسة أشخاص.. في العشرينات من العمر، ومن جنسيات عربية مختلفة - بمن فيهم طِلب - يقيمون بالقاهرة لأسباب عدة..

يحلو لعم مدبولي تسمية جلسة الشباب بجامعة الدول العربية..

تبدأ مراسم الاحتفال بكلمة ترحيبية يلقيها عم مدبولي حسنين.. عادة ما تكون مختصرة للغاية لا تتعدى عبارة:

- مييت مسا..

يقوم بعدها بافتتاح الجلسة..

يتناول قطع الفحم المشتعل بالملقط النحاسي، ويضعها على التبغ وأوصال الحشيش في الرأس الفخاري للشيشة..

يصف عم مدبولي، في لحظات التجلي، المشهد بأنه:

- سباحة هالات حمراء قانية فوق الفحم الأسود.. كأنها أمواج مسحورة تتراقص فوق أوصال الحشيش.. داعية الجلوس لغياهب التيه والمتعة.. إنها مداعبة حميمة لسحب النشوة في ليالي البهجة والخيال..

يستنشق الهواء بقوة من طرف الخرطوم، بسحب الهواء من حوالي الرأس، الذي بمروره بالفحم يشعله أكثر فيحترق التبغ والحشيش، فيولِّد دخانًا ينسحب مع الهواء داخل غرفة المياه.. ومن خلال الماء إلى الفتحة الجانبية للأنبوب، فالخرطوم، فرئته العطشى لجريان المخدر في الشرايين من رأسه وحتى أخمص قدميه..

بعد تأكده من وصول الشحنة الأولى من المخدر إلى مستودع الدماغ، يميل تجاه مَنْ يجاوره ويقدم له الخرطوم بعد ثنيه قائلًا عبارته الترحيبية المكررة:

- مساء الخير..

كانت جلسات عم مدبولي مصدر إلهام لطِلِب في كثير من المعتقدات السياسية، التي كان يدعو زملاءه في العمل إلى

اعتناقها سرًّا، بعيدًا عن رجال الأمن؛ فهو يعمل كاتبًا إداريًّا في شركة استثمارية مختلطة الجنسيات لتصنيع العلف الحيواني.. صامت، يفكر معظم الوقت، وتُعمِّق نظارته السوداء السميكة، والسيجارة المشتعلة التي لا تفارق شفتيه الداكنتين، ذلك الانطباع الراسخ عنه في الشركة.. طويل القامة والوجه.. شعره فحمي ناعم مثل والده، وربما اكتسب نحافته كذلك..

تعتقد سناء أنه لا يتغذى بما يكفي احتياجات نموه؛ ولذلك كانت دائبة القلق عليه.. لا يغفل لها جفن قبل أن تتأكد أنه قد عاد من عمله الذي يقضي فيه أوقاتًا إضافية بالمصنع.. بحسب ما أفهمها عن جلسات عم مدبولي..

كان كثير التردد على المكتبات العامة، ليس للقراءة في مجال تخصصه الإداري، ولكن ليمر مرورًا سريعًا على ما كُتب حول الأفكار الاشتراكية.. بداية من استغلال النظام الرأسمالي، ومساوئ العمل المأجور، ودور الطبقة الحديثة وأهميتها في التغيير، وبيان أسس الاقتصاد الاشتراكي.. كان هذا المرور السريع يتيح لطِلِب التقاط كلمة من هنا وكلمة من هناك، ليُطلق شعارات رنانة في كافيتريا المصنع وجلسات الدماغ في شقة عم مدبولي..

كان يُعظِّم حيوية «البروليتاريا»، وينتقد الرأسمالية، ويُبشر في أواخر جلسات عم مدبولي، عندما تبلغ الأدمغة هوام السحب، بقرب حلول المجتمع الجديد بقيادة الحزب الشيوعي، لكل بلدان الشرق الأوسط..

رغم هدوئه الظاهري فالويل لمن يثيره.. يتوتر عند أي نقاش أو جدل، ويأخذ بالصراخ والهذيان دون توقف.. وقد يستخدم ذراعيه وقدميه وجبهة رأسه في التعبير عن عدوانية دفينة بداخله، حتى يهدأ ويعود مجددًا إلى صمته؛ لذلك كان زملاؤه في العمل يتحاشون مناقشاته أو الإسراف في المزاح معه، خوفًا من تقلباته المزاجية وثوراته الجنونية..

لم تكن هناك فتاة معينة في حياته، أحبها أو صادقها، كحال معظم شباب القاهرة.. بل اقتصرت علاقاته مع الجنس الآخر على تصيُّد الباحثات عن المتعة، واللاتي كُن يترددن على مطعم وكافيتريا «أستريدس»، في شارع خلفي، هادئ، موازٍ لشارع النزهة، قريبًا من جروبي مصر الجديدة.. يرافقهن إلى شقة عم مدبولي، الذي لم يُمانع في استخدامه لغرفة نومه، شريطة أن يرصد المشهد من بعيد..

لم يفهم طِلِب كلمة «يرصد»، عندما قالها له عم مدبولي أول مرة، إلا عندما أوضح له الأخير أن الرصد مشتق من المرصد، الذي يتتبع الطائرات في هبوطها على مدرج المطار وصعودها منه.

* * *

كان مجلسهم على طاولة في محاذاة بحيرة البط..

شريف وطفله عمرو، البالغ من العمر سنتين، من جهة، وفاطمة من الجهة الأخرى المقابلة.

انصرفت شيريهان، ابنة شريف المحببة إلى نفسه، التي لم تكن قد تعدَّت الرابعة من العمر، لمداعبة أسراب البط وإطعامها فتات الخبز بيدها المترددة بإثارة ومتعة اكتشاف الجديد، في عالمها الطفولي البهيج..

ابتسمت فاطمة قبل أن تبسط ذراعيها لتتناول عمرو وتجلسه على حجرها بحنان، لم يمانع الطفل بدرجة أسعدت شريف حمدي، فبادلها ابتسامتها وقال:

- الكل على ما يبدو يشعرون بأُلفة معكِ يا فاطمة..

- كانوا في مدرسة الليسيه يطلقون عليَّ لقب «دبدوبة»..

- تُكثرين السخرية من الذات..

تابع شيريهان قليلًا، ثم عاد إلى فاطمة قائلًا:

- كثيرًا ما حسبت أن لا شيء يعنيك في هذه الحياة..

- تعجبني ملاحظاتك المتعمقة، أما السخرية فأنا عادة لا أجيدها، ربما انتقادًا للذات..

- بداخلكِ غموض يا فاطمة، وكأنكِ توارين جروحًا عميقة..

ابتسم لوهلة ثم قال:

- وكأنكِ في ملكوتٍ آخر..

- لا أحد يخلو من المتاعب..

مالت برأسها على خد عمرو وقبَّلته قبل أن تستطرد قائلة:

- علينا أن نواصل الحياة على أي حال..

تفحَّصها وقد اتسعت حدقتا عينيه الزرقاوين، وقال متسائلًا:

- هل يُضايقكِ تغلغلي في خصوصياتكِ؟

- لا..

- أريد معرفتكِ أكثر، الشركة لا تتيح لنا المجال لمثل هذه الأحاديث.

- هناك من الماضي ما قد أوصدت أبوابه.. غير أني حقيقة شرفت بك وأتمنى لو قمت بزيارتنا مع زوجتك.. بالتأكيد سيكون شرفًا كبيرًا لنا في 10 حليم أبو سيف أو «10» كما تسمي جدتنا سناء منزلنا بمصر الجديدة..

لم يعجبه، فيما بَدَا، إقحام زوجته في حوارهما، وحاول إعادة الحوار إلى سياقه:

- لا أريد اقتحام أسوار حياتكِ.. إلا إذا شئتِ أنت ذلك.

أومأت برأسها وابتسمت قبل أن تعقِّب قائلة:

- أستاذ شريف.. أشرُف بالحوار معك.

* * *

كان سعد في طريق عودته من زيارته اليومية للفيلا للاطمئنان على جدته سناء، بعد أداء رياضة السير صباحًا في ملعب كرة القدم بنادي هليوبوليس..

فوجئ بصفٍّ من رجال الحرس الجمهوري على جانبي الطريق، من منزل محمد حسني مبارك، نائب الرئيس، وحتى شارع الميرغني الصاعد..

فسَّر الأمر على أنه ربما كان رئيس الجمهورية هناك، في زيارة لنائبه، قبل توجههما إلى استعراض احتفال 6 أكتوبر العسكري.. خاصة قد راجت شائعات قوية حول خلافات حادة بين الرجلين.. وربما كان الاستعراض مناسبة طيبة لإظهار الوئام التام بينهما للرأي العام، سواء المحلي أو العالمي.. لكن عند منتصف النهار، وبينما كان سعد يتابع من خلال شاشة التليفزيون سير العربات المحملة بالجنود أمام المنصة الرئيسية للاستعراض العسكري.. وبعد مرور سرب الطائرات الحربية وتحليقها قريبًا من الأرض، قبل صعودها المفاجئ للسماء، مخلفة وراءها سحب الدخان، وكأنه قوس قزح متعدد الألوان.. إذا بالصورة تهتز اهتزازًا عنيفًا، بينما يُسمع صوت طلقات رصاص متواصل من كل اتجاه.. وجلبة.. ثم ثبتت عدسة الكاميرا على صورة الأسفلت وانقطع الإرسال تمامًا.. مما دفع سعد للانتفاض من فوق مقعده

والنداء على أماني لإبلاغها بما حدث، قبل أن ينطلق بسرعة عائدًا إلى الفيلا..

لم يستغرق قطع شارع الحجاز حتى ميدان روكسي، ومن ثم إلى شارع الميرغني، والدوران إلى شارع حليم أبو سيف، سوى دقائق سبع.. كانت الشوارع شبه خالية.

عند مدخل الفيلا، في الجهة المقابلة لبيت النائب، كانت هناك مجنزرة عليها عسكري في وضع الاستعداد، خلف مدفع رشاش..

تساءل سعد متعجبًا:

- متى تم كل ذلك؟

10

تعددت لقاءات فاطمة وشريف..

كل مرة بمبادرة من طرف منهما.. كانت وسيلة التواصل بينهما أوراقًا صغيرة يتبادلانها أثناء أحاديثهما في شؤون العمل بشركة «صوت وصورة».. كانا يعتقدان أن لا أحد يعلم سرهما.. وذلك على النقيض مما كان بالفعل يُتداول داخل أروقة الشركة ومن خلال أجهزة الهاتف في منازل الموظفين والموظفات..

تعددت أماكن لقاءاتهما، وتنوعت محادثاتهما..

في مطعم الأمريكين بشارع 26 يوليو بوسط البلد.. الذي اعتادا فيه تناول مخبوزات الكرواسون، والباتيه، مع الكابتشينو الساخن.. بركن هادئ داخله، قال لها متسائلًا:

- لماذا بعد كل تلك اللقاءات، ما زلتِ تنادينني بأستاذ شريف؟

ضحكت، ثم أجابت:

- يليق لقب أستاذ مع اسمك يا أستاذ شريف!

- يمكنك الاستمرار بمناداتي أستاذ شريف داخل الشركة، أما خارجها فشريف فقط..

انسحبت ببصرها إلى سقف المطعم، ثم ابتسمت قبل أن تقول:

- عندما رأيتك أول مرة خلت أنك أحد باشوات مصر القدامى..

وفي موقف للسيارات على ضفة النيل الساحر، حيث تصطف سيارات العشاق دون إزعاج أو تطفل الآخرين.. قال لها بعد أن ضحك ضحكة قصيرة بها الكثير من الغبطة:

- اليوم عندما صححت لك مقطعًا من أغنية شادية، وقلت لكِ: «بحس إنك حتة مني».. في الواقع، ليس هناك مثل هذا المقطع في تلك الأغنية.. كنت أعني قول العبارة لكِ في تلك اللحظة.. ليس أجمل من أن تُقال الكلمة في وقتها..

قالت وكأنها تتصنع الغفلة:

- ربما أنا حتة منك؛ لأننا نعمل معًا في برنامج واحد**!**

لم يُعِرْ قولها التفاتًا، وإنما استطرد قائلًا:

- أكبرك بخمسة عشر عامًا..

- كل صديقاتي أكبر مني..

- وفي الحب؟

صمتت طويلًا، وهو يترقب إجابتها، ثم قالت:

- كان يكبرني بعشرة أعوام..

- هل ما زالت علاقتكما مستمرة؟

- كان ضابطًا في القوات المسلحة، واستُشهد خلال عمليات العبور.

* * *

كان شريف وفاطمة يتقابلان، أحيانًا، في الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع حليم أبو سيف.. شوارع هادئة وخالية تمامًا من المارة.. وفي أحد اللقاءات، دعته لمشاهدة دالية العنب.. الدالية كانت في حديقة الفيلا الجانبية.. زرعتها سناء في بداية إقامتها بالقاهرة..

كانت سناء نائمة نومًا متقطعًا أمام التليفزيون، تنتظر عودة طِلِب من عمله الإضافي، كما يدعي..

طلبت فاطمة من شريف، بإشارة من أناملها، أن يتحدث بصوت خفيض حتى لا تسمعهما جدتها..

كانا يتهامسان تحت عناقيد العنب المتدلية حين قال:

- تبدين في بعض الأحيان وكأنك بعيدة عني تمامًا..

- أُنصت إليك بتمعن.

- تجاوبينني بعيدًا عن سياق الحوار..

- يكون ذلك عندما لا أعرف ماذا أقول.. أكون مرتبكة..

- لقد تعدينا مرحلة الخوف..

- ليس خوفًا..

اقترب منها قليلًا، قبل أن يهمس مجددًا:

- أفتقدك كثيرًا بقية يومي..

ابتسمت وهي تمد يدها وتضع إصبع السبابة على شفتيه.. وكأنها تخشى تسرب صوته إلى داخل البيت..

صمت لبرهة، ثم اقترب بفمه من أذنها، بهمسة أخرى لم تتبينها بوضوح..

ازداد اقترابه منها معيدًا ما همس به..

داعبت أنفاسه الساخنة مسام رقبتها.. ربتت خصلات شعرها.. فسرت بجسدها رعشة مباغتة..

* * *

لم تُعد سناء طعام الإفطار لطِلِب كعادتها كل صباح..

ثار طِلِب وزمجر، وتوجَّه إلى عمله بالمصنع غاضبًا.. وعندما قدم سعد كعادته الصباحية، بعد قليل من انصراف طِلِب، تفقد

سناء فلم يجدها، وكانت فاطمة ما زالت نائمة.. فتوجه إلى غرفة نوم الأولى..

لم ترد جدته سناء على ندائه.. ولا على تربيت يده كتفها.. بل كانت غائبة عن الوعي، وتتنفس بصعوبة..

أصابه الهلع، وقفز إلى سيارته بحثًا عن طبيب.. وبعد أن كشف الطبيب عليها، وضع سماعته في حقيبته، وقال وهو يكتب أسماء بعض الأدوية:

- احرصوا على انتظام تناولها الدواء..

قالت فاطمة بلهفة:

- ما تشخيص حالتها؟

- الشيخوخة حُبلى بالمفاجآت..

- ستنهض من فراشها اليوم .. أليس كذلك؟

- لا أحد يضمن ذلك في هذا العمر.

وكما قال الطبيب، ظلت سناء نائمة، تتنفس بعمق وبانتظام.. غير أنها كذلك توحي بأنها قد تتوقف عن التنفس في أي لحظة من اللحظات..

أبلغ سعد لولوة فجاءت في طائرة اليوم التالي.. كرَّست وقتها لخدمة أمها، وبعد يومين متواصلين من الصمت، بدأت سناء في ترديد:

- لا تنقلوني من «10».. لا أريد الذهاب إلى المستشفى..

بعد مرور أسبوع آخر، أخذت ترجو سعد أن يعيدها من المستشفى إلى «10»، ولإرضائها، كان سعد يقوم بحملها والدوران بها داخل المنزل لحين إعادتها لفراشها، حيث يضعها هناك، مطمئنًا إياها بقوله:

- الآن عدنا إلى «10».. لا مستشفى بعد اليوم!

وفي اليوم التالي، كانت تعيد الطلب نفسه، ويعيد هو حملها مجددًا..

استمر وضع سناء على ما هي عليه، دون أي تحسن، وتقاطع تدهور حالة سناء مع حدث مأساوي في 10 حليم أبو سيف.

كانت ليلة مشؤومة.. ليلة بداية أحزان عائلة عبد الله.

عاد طِلِب بعد أن أطال جلسة الدماغ عند عم مدبولي.. ألقى بثقله على مقعده أمام التليفزيون في صالة المعيشة المواجهة للمدخل.. ما تغير في برنامج السهرة لدى عم مدبولي هو تقديم أحد الجلوس الشباب لطِلِب حبوبًا لزيادة فعاليته الجنسية مع رفيقته في تلك الليلة..

كان يشعر بارتفاع في ضغط الدم، يتعرَّق، ويسود تفكيره قلة التركيز والقلق..

قام خلال جلوسه ببعض الحركات البسيطة اللاإرادية، إلا أن هيئته كانت تشير إلى زيادة قابليته للهيجان والعدوانية..

تصادف وجود سعد مع فاطمة ولولوة بغرفة سناء.. لم تذهب أماني مع زوجها سعد في تلك الليلة..

خرج سعد من الغرفة، وحيًّا أخاه، فلم يرد طِلِب التحية بمثلها، وإنما قال:

- أنت الآن لديك شقة كبيرة بشارع الحجاز..

- الحمد الله.

- أظن أن الوقت قد حان لتحمل مخلفاتك من غرفتي..

- تقول غرفتي؟

بدأت عينا طِلِب في الاتساع خلف نظارته السوداء، وقال صارخًا:

- نعم غرفتي.. وتحمل أغراضك وترحل.. الآن!

صمت سعد للحظات، ثم قال:

- 10 حليم أبو سيف بيتنا جميعًا.. كل واحد منا له حق فيه..

بدأت فورة طِلِب وصراخه.. أغرق أخاه سعد بسيل من السباب والشتائم.. اقترب سعد منه محذرًا وطالبًا التزام الهدوء.. فما كان من طِلِب إلا أن دفعه بعيدًا، فارتطم ظهره ورأسه بالحائط المواجه.. رفع سعد يده تجاه صدره، وكأن نوبة عاتية من الربو هبت لمداهمته.. احتقن وجهه، وصار يتنفس بصعوبة.. بدت الفرصة سانحة لطِلِب.. فاندفع منقضًّا على سعد كالثور الهائج، وأخذ يكيل له اللكمات من كل جانب..

كان سعد ، دون جدوى، يستجدي أخاه أن يتوقف.. ثم بدأت تسري بشفتيه وأصابعه زرقة داكنة، وخرج بعض لعابه..

سعل بشدة..

توقف عن المقاومة..

اكتفى طِلِب وسكت عن ضربه..

أغمض سعد عينيه.. بدأ يُصدر صفيرًا مع تنفسه الآخذ في الأفول..

سكت الغضب قليلًا عن طِلِب.. أمعن النظر إلى وجه أخيه.. وجد أن أنفاس سعد اللاهثة قد خمدت تمامًا..

في الأيام التالية كان المنزل مسرحًا لأول عزاء داخله..

عاد عبد الله وولده أمين من جدة.. ازدحم البيت بالمعزين ومشاطري الأحزان.. شريف كان من أوائل مَن قدَّم عزاءه لأناس لا يعرفهم
ولا يعرفونه..

سأل عبد الله ولده أمين عن هوية ذلك الرجل الغريب، فلم يتعرَّف عليه..

لزمت فاطمة الكتمان، ولم تبين للولوة شيئًا البتة..

رجل غريب آخر كان بين الحضور، هو الدكتور عثمان با حمدين، الأستاذ الجامعي الذي تعود أصوله إلى حضرموت في اليمن الجنوبي..

تعارف تم بينه وبين أمين في مدينة جدة..

كان أمين حريصًا على علاقته مع العالِم الإسلامي والمفكر المشهور، لتوثيق صورته الذهنية لدى جمهور المكتب، بأنه رفيق أهل العلم والعلماء بجدة..

رأى الرجل مشاطرة أمين أحزانه، خلال زيارته القصيرة لجامعة الأزهر، التي كان قد حصل منها على شهادتي الماجستير والدكتوراه في أصول الفقه..

خصَّه أمين بعناية خاصة خلال العزاء.. أتاح له فرصة تقديم عزائه لأفراد الأسرة جميعًا بعد انصراف المعزين..

عندما قدم عثمان با حمدين عزاءه لفاطمة، لمعت عيناه ببريقٍ غريبٍ، لا يتفق مع أحزان المناسبة.. لم تُعر فاطمة ما حدث اهتمامًا..

الوحيد الذي تخلَّف عن مراسم العزاء كان طِلِب.. لجأ إلى شقة عم مدبولي، ولازمها لأيام هربًا من ملاحقة الشرطة له، حتى ألقت القبض عليه في أول ظهور له بمقر عمله..

حُقِّق معه، وحُكم عليه بالسجن.

انقاد لسجنه ذليلًا مُنكَّس الرأس ومشوش الفكر.. أكثر الحديث مع نفسه في السجن.. في كثيرٍ من الأحيان بصوت مسموع..

صرخ في رفاق محبسه ذات مرة:

- أنا قاتله.. أنا قابيل عصري!

* * *

مع نهاية مراسم العزاء، عاد عبد الله وأمين إلى جدة.. بينما واصلت لولوة إقامتها بجوار والدتها الغائبة عن الوعي..

بعد مرور بضعة أسابيع على وفاة سعد، بدأت سناء مرحلة صحوة ما قبل الموت، بتقلباتها المنتظمة بين اليقظة والغيبوبة..

قالت للولوة:

- أين سعد؟ لماذا لا يزورني كعادته كل يوم؟

أجابتها أن سعد قد سافر إلى مكة المكرمة لأداء العمرة.. كانت تعيد كل يوم السؤال نفسه، وتكرر لولوة الإجابة ذاتها.. حتى جاء ذلك اليوم، الذي سألت سناء فيه لولوة، وهي غارقة بنوع من الوعي العابر:

- لماذا كذبتم عليَّ بخصوص سعد؟

ساد الوجوم الدار، ولم يعرف أحد كيف علمت سناء بخبر وفاة حفيدها سعد..

في تلك الليلة، وقرب الفجر.. في غرفة فاطمة المظلمة إلا من ضوء مصباح الشارع القريب من غرفتها والمتسلل عبر الشباك الشيش.. فتحت فاطمة أحد جفنيها.. فلمحت رجلًا بوشاحٍ أسودَ طويلٍ يمر من جوار فراشها.. كان مرعب الهيئة ودميمًا.. رمقها بنظرة خاطفة، متفحصة، انخلع لها قلبها.. ثم احتوت ظلمة الغرفة الشبح الأسود..

كأنه قد أخطأ المكان.. أو ذهب إلى حيث سناء..

حسبت أنه حلم أو كابوس مزعج.. غير أنه، على ما يبدو، كان غير ذلك..

فُتح باب غرفة نومها فجأة بقوة.. أطلت منه أمها مولولة:

- جدتك ماتت يا فاطمة.. ماتت.

11

جلست لولوة بشموخ على مقعد سناء بخاري بالشرفة الأمامية للفيلا، تتأمل العمائر المحيطة..

تغير المكان، بعد أن كان يومًا مقصورًا على فيلتي جانيت الصافي وشهيرة شعبان فريد؛ اللتين غادرتا الحي دون عودة.. كل شيء، على ما يبدو، في هذه الدنيا يذهب دون عودة..

تغيرت مصر الجديدة.. فانقلب حال البيت.. لم تعد هناك مساحات كافية للتنفس بين الأكوام الأسمنتية..

شارك رئيس الجمهورية وحرسه في شغل المكان.. غدا كل شيء في الحي مُراقَبًا بإحكام..

ابتسمت لولوة ابتسامة خافتة، عندما تذكرت قول رستم سعيد يوم وصولهم إلى الفيلا أول مرة، عام 1952:

- ستتمتعون بصفاء ونقاء الجو والهدوء هنا في القاهرة..

إلى جوارها، كانت فاطمة تشرب الشاي، وتفكر بصمت مشابه لصمت أمها..

حضر شريف عزاءي سعد وسناء، وفي عزاء الأخيرة صافحه عبد الله وأجلسه إلى جواره، قبل أن يسأله:

- لقد رأيتك في عزاء ولدي سعد، والآن أراك تعيد مشكورًا عزاءك لنا.. فمن الأخ الكريم؟

- شريف حمدي..

صمت شريف لبرهة ثم قال:

- كريمتكم فاطمة زميلة لي في شركة «صوت وصورة»..

- حسنًا..

استطرد عبد الله قائلًا:

- أرجو أن تعتني بها، ففاطمة إنسانة طيبة للغاية..

- نعم.. أدرك ذلك.

- اعتبرها مثل ابنتك..

ليست تلك العبارة هي الوحيدة التي أزعجت فاطمة. من المزعجات الأخرى، قول إحدى زميلاتها بهمس يُراد منه أن يكون مسموعًا، أثناء قراءة فاطمة لبطاقة دعوة فرح زميلة أخرى من مقدمات البرامج بالشركة:

- عُقبال ما يكون عمًّا قريب في يديك..

ابتسمت وهي تتفحص رد فعل فاطمة، ثم استطردت:

- أقصد ابن الحلال..

ثم ضحكت ضحكة مختصرة، وانصرفت.

لم تصدق، هي نفسها، ما أكدته لها بديعة عبد العزيز، حول شيوع خبر علاقتها بشريف في أرجاء الشركة..

في الطابق الرابع من العمارة القديمة المطلة على شارع رمسيس، جلست شهيرة على مقعد مجاور لشريف، أثناء تناوله طعام العشاء على سفرة في البلكونة.. قالت:

- نوفمبر على الأبواب، وما زال الجو خانقًا..

لم يُجِبها شريف على ملاحظتها، ترقبًا لما سيلي.. لم يطُل انتظاره.. تساءلت:

- هل ذهبت إلى مدرسة شيريهان هذا الصباح؟ كانت غائبة طوال الأسبوع الماضي.. ألم تذهب لتعتذر لإدارة المدرسة؟

- يا الله.. كنت منهمكًا في عمل عاجل بالشركة.

- تشغلك قضايا الأمة العربية هذه الأيام!

هزَّته عبارتها الأخيرة.. أي قضايا تعنيها؟ هل عرفت شيئًا عن علاقته بفاطمة؟ وهل وصلها أن فاطمة خليجية مقيمة بمصر؟ حتمًا صديقاتها في الشركة هُن مَنْ أخبرنها..

تساؤلات عديدة سريعة مرَّت بخاطره بعد انتفاض شهيرة الأشرم، لتدلف إلى داخل الشقة، حيث قبعت بتوتر بالغ في مقعدها بغرفة المعيشة..

لقد سئم شريف حياته مع هذه المرأة الدائبة التذمر والشكوى.. يريد أن يعيد تخطيط مسار حياته.. مسلسل جديد يسعى لإخراجه برؤية جديدة.. وبنجمة جديدة.. تتفهم الدور، وتطيع توجيهاته، وتفهم تلميحاته.. نجمة خياله المتوهج.. نجمة شبابه في أثناء دراسته للإخراج التليفزيوني.. نجمة مطيعة ومحبة لدورها.. متفانية في تأديته..

كل ذلك ضمن إطار سيناريو لا مكان فيه لأعمار أو حقائق حياة.. ليس هناك مرض أو شيخوخة أو عجز أو برودة.. عالم وردي خيالي.. سابح في أعالي السحب..

لقد وجد في فاطمة ضالته المنشودة.. النجمة الجديدة لمسلسل حياته.. فقد أحبتها شيريهان، وراق لعمرو حنانها، عندما أجلسته على حجرها بجزيرة الشاي..

توقف قليلًا متسائلًا:

- ولكن شهيرة، إلى أين؟

خاطر تقاطع مع تدفق خياله.. ينبغي أن يوفر لها، هي كذلك، حياة آمنة وهادئة.. معضلة المسؤولية الضميرية للأزواج عندما يعشقون..

إنه لا يكرهها.. ولكنه فاتر الانجذاب نحوها..

يشعر في بعض الأحيان برغبة صادقة في احتضانها وتقبيلها، غير أنه لسببٍ ما يمتنع في اللحظات الأخيرة.. شيء ما غدا يعوق تلاحمهما.. وكأنه سدٌّ منيع، مجهول المعالم..

من الجهة المقابلة.. ليس لشهيرة من أحد في هذه الحياة سوى شريف.. تزوجته رغما عن أهلها.. وهربت معه من الإسكندرية إلى مأواهما في القاهرة، ولم تعد بعدها إلى أهلها أبدًا.. اعتبرها بعض أهلها مفقودة، وبعضهم الآخر ميتة..

أنهكتها حياة الحرمان والعوز والشتات مع شريف.. كثر تنقله من عملٍ لآخر.. لم يستقر دخل ولا أمان لأسرتها.. فتسلل السأم لحياتها.. واعترى محبتها له صدأ وخشونة.. كرست حياتها لطفليها.. غير أنها كثيرًا ما كانت تثور على تضحياتها عندما تشعر بجحودهما، في شح وفائهما ومحبتهما لها.. تمامًا مثل والدهما.. إنها لا تغادر أسوار أحاسيسها بظلم وغبن الأيام والناس لها.. تتقلب بحيرة وألم، على فراش حنينها لحبها له..

عشر سنوات، أودعتها الأيام أمانة بفؤادها.. صمت وتباعد يحولان دون تمازجها معه..

تحاول هي الأخرى إحاطته بعواطفها المترددة.. فتعود في كل مرة خائبة الرجاء إلى ظلمات أوكار أحزانها المتصلة..

تعبيرها التلقائي المتكرر هو الانتفاض والثورة، والمزيد من تباعد المسافات بينها وبين شريف.. ولكن، في الوقت ذاته، من الصعب انتزاع رجل من حضن امرأة أحبته يومًا؛ لذلك بعد أن أبلغتها صديقاتها بما تنامى لمسامعهن عن علاقة شريف وفاطمة، وارت عواصف غضبها وكرامتها المجروحة.. فكرت كيف تنقذ أسرتها من الخطر الذي يبدو هذه المرة خطرًا حقيقيًّا على عرينها المتداعي.. خطرًا قادمًا من مكان ليس ببعيد.. من 10 حليم أبو سيف بمصر الجديدة..

جمعت معلوماتها بدقة من صديقاتها في الشركة قبل خوض معركتها، التي تشعر كذلك بأنها ربما تكون معركة قومية.. فالمرأة التي تواجهها غير مصرية.. وهي، شهيرة، الفرعونية.. المخصبة بطمي نيل مصر.

* * *

بينما كانت الشمس في طريقها للغروب خلف العمائر المحيطة بالسور الغربي لنادي هليوبوليس الرياضي.. وعلى الشارع المؤدي مباشرة من جوار سور النادي الجنوبي إلى الفيلا.. كانت سيارة شريف حمدي الزرقاء تتهادى نحو البوابة الحديدية الرئيسية للفيلا، بعد تخطي بوابة الحديقة الجانبية..

البوابة الرئيسية كانت مفتوحة على مصراعيها.. لم توصد أبدًا منذ توطَّنت أسرة عبد الله البيت..

تابعت لولوة دخول شريف إلى حديقة الدار الأمامية، ووقوفه عند سلم الشرفة، حيث يكمن مقعد سناء، الذي ورثت عنها لولوة عادة الجلوس عليه، كمكان مفضل، خلال فترة ما قبل الغروب..

تُمضي لولوة الوقت هناك في شرب الشاي مع محبوبتها فاطمة، التي أخبرتها أن هناك من الشركة مَنْ يُريد مقابلتها في أمر يخصها..

فهمت لولوة الرسالة، وتمنَّت تحققها؛ لذا فإنها ما إن رأت شريف حتى ابتسمت وقامت من جلستها واتجهت ناحيته. صافحته ودعته للجلوس إلى جوارها..

قال شريف مبتسما:

- مكان جميل للتأمل والخيال.

- طبيعي أن يكون هذا التعليق صادرًا عن صانع خيال!

ابتسم لردِّها، غير أنه لم يفهم مغزاه، بشكل جيد.. قال بعد قليلٍ:

- هل حدَّثتك فاطمة عن مقصدي من الزيارة؟

- نعم.. غير أني أبقيت سؤالًا، اعتقدت أنك خير مَنْ يجيبني عنه..

- تفضلي.

- لماذا لم تتزوج حتى الآن، رغم تعديك الأربعين من العمر؟

ألجم السؤال المفاجئ لسانه.. بعد مراجعة سريعة لكل حوارات الروايات التي أخرجها، قال:

- أنا متزوج، وأب لطفلين.. وأحب ابنتك فاطمة حبًّا جمًّا.. سأوفر لها حياة كريمة.. أقسم بذلك يا سيدتي.

وكأنها لم تسمع ما قاله.. تململت في جلستها وقالت متسائلة بوجوم ظاهر:

- تُفضل الشاي أم القهوة؟

لم تنتظر طويلًا بعد سماع ردِّه.. سارعت إلى المطبخ في الركن البعيد من المنزل.. تبعتها فاطمة على عجل.. كانت جالسة قريبًا من الشيش المؤدي للشرفة، تتابع حوارهما.. لم تنبس لولوة بكلمة لفاطمة.. سكبت الماء المغلي فوق كيس الشاي داخل الفنجان، ووضعته على صينية أعدتها لهذا الغرض، ثم عادت مجددًا إلى الشرفة، حيث وضعتها أمام شريف، قبل أن تقول بشكلٍ يوحي بالاختصار:

- شرُفنا بزيارتك يا أستاذ شريف.. سأُبلغ والدها هاتفيًّا بما دار بيننا..

انتهى اللقاء بين لولوة وشريف.

في ظهيرة اليوم التالي، بعد مغادرة فاطمة الدار على استعجال في طريقها لعملها، دق جرس الباب الخارجي للمنزل.. فتحت لولوة الباب بنفسها، فإذا بسيدة تسألها:

- حضرتك والدة فاطمة رجب؟

- نعم .. خيرًا؟!

- هل يمكننا التحدث قليلًا؟

دون أن تنتظر إجابة لولوة، التفتت شهيرة إلى سيارة صغيرة عند الباب، وهتفت بطفلين يجلسان على مقعدها الخلفي أن يلحقا بها إلى الداخل.

12

أثناء انشغال أمين رجب بمكالمة هاتفية في مكتبه بجدة، أطل السكرتير من باب الغرفة، يصحبه ضيف.

كان الضيف أحد مُريدي الدكتور عثمان با حمدين.. وكان صديقًا مشتركًا بين أمين والدكتور عثمان.. بعد أن استهل الضيف حديثه بالتحية التقليدية قال:

- الدكتور عثمان يهديك السلام ويرجو منك، يا أمين، قبول هديته المتواضعة، راجيًا أن تنال استحسانك..

كانت الهدية عبارة عن بشت حَسَاوي (عباءة رجالية عربية، والحساوي نسبة إلى منطقة الأحساء بالسعودية) متميز بنقشته الملكية، مع زري مبردخ (شريط يُحاك على أطراف العباءة) بخيوط حريرية بلون الذهب..

صمت للحظة وهو يتفحص رد فعل أمين على الهدية ثم استطرد قائلًا:

- يريد الدكتور منكم معروفًا..

أجاب أمين بترحيب بالغ:

- الدكتور يأمر..

- يريد تحديد موعد له لمقابلة الوالد..

لم يفهم أمين علاقة والده بصداقته مع الدكتور عثمان.. فقال الرجل موضحًا:

- يريد التشرف بطلب يد أختكم، ذات الصون والعفاف، الآنسة فاطمة..

مرَّ بذهن أمين شريط تعزية الدكتور عثمان لعائلته في وفاة أخيه سعد بالقاهرة.. وهي المناسبة التي قابل فيها الدكتور عثمان فاطمة.. أجاب أمين:

- سأُبلغ الوالد، وإن شاء الله ما يصير إلا كل خير..

بعد أن أوصل ضيفه حتى الباب الخارجي للمكتب، عاد أمين والسعادة تطفر من وجهه.. وكأنها صفقة قيِّمة قد عُقدت؛ أن يكون على صلة رحم مع الدكتور عثمان.. الصلة الوطيدة بالدكتور عثمان ستزيد من بريق أمين الاجتماعي والعلمي.

في الوقت ذاته، كانت لولوة تحادث زوجها من القاهرة، لتبلغه بكل ما دار مع شريف حمدي.. تذكر عبد الله عندما قابله في عزاء حماته سناء بالقاهرة.. استنكر تجرؤه على طلب يد فاطمة، وهو يكبرها عمرًا بخمس عشرة سنة، بالإضافة إلى كونه متزوجًا وأبًا لطفلين.. وما آلمه أن فاطمة قد أحبته وتحمست للزواج منه..

صاح في لولوة عبر الهاتف:

- لم يُحسن أخواها رقابتها..

تباحث عبد الله طويلًا مع أمين حول ردِّه على طلب الدكتور عثمان با حمدين..

في الليلة نفسها قالت لولوة لفاطمة:

- والدك يقول: كيف تتزوجين من رجل بفارق سن كبير كهذا؟**!**

- لا أرى في عمره عائقًا يا أمي، ثم أنا مَنْ ستتزوج، وليس أبي**!**

صاحت بها لولوة أن تحفظ أدبها عندما تتحدث عن والدها، وقالت باستهجان:

- زوجته زارتني أمس.. كيف يا بنتي تدمرين كيان أسرة بأكملها؟**!** ألم تفكري في طفليه وما ستسببينه لهما من آلام قد تلازمهما طوال حياتهما؟

لم تمتلك فاطمة أي رد إلا الإسراع إلى غرفتها والبكاء فوق فراشها.

* * *

بعد مرور يومين، كانت أحاديث تطور علاقة شريف وفاطمة على كل لسان في شركة «صوت وصورة».. لم تتمكن فاطمة من تحمُّل نظرات وتعليقات زميلاتها وزملائها في العمل فقدمت استقالتها.

مكثت في غرفتها لا تغادرها إلا فيما ندر، وحلت محلها في الشركة موظفة جديدة.. أجرى شريف معها المقابلة الشخصية بغرض الانتقاء.

هاله قوامها الفارع وشعرها البني وعيناها العسليتان.. بدأت الشركة تتحدث عن مسلسل عاطفي جديد لشريف.. نقلت بديعة الخبر إلى فاطمة، وروت لها كل ما يدور في الشركة من أحاديث وأقاويل، فشعرت فاطمة بالغدر، وأصابها الحزن والغم من السهولة التي تخلى بها شريف عنها..

* * *

دق جرس الهاتف في الفيلا .. كان أمين على الجانب الآخر.. قالت لولوة على مسمع من فاطمة، الجالسة بصمت في غرفة المعيشة، أمام التليفزيون:

- ما بك يا أمين؟ خيرًا؟

- الوالد مريض، أصيب بغيبوبة سكر.. يحتاج إلى عنايتك..

- وفاطمة، كيف أتركها بمفردها في القاهرة؟

- ما دامت فاطمة قد استقالت من عملها.. فلِمَ لا تأتي معك؟

- أمين.. أرجو أن تقول الحقيقة.. ما خطب والدك؟ لِمَ لم يتصل هو بذاته؟

- لا تخافي يا أمي، لا شيء، ولكنه لا يغادر فراشه..

صمتت تفكر، ثم جلست بجوار فاطمة، بعد أن خفضت صوت التليفزيون، وقالت:

- يُعاني والدكِ مضاعفات السكر.. علينا أن نسافر له.. لا أستطيع تركك بمفردك.

وافق مقترح لولوة هوًى عند فاطمة؛ فمن جهة تطمئن على والدها.. ومن جهة أخرى تهرب من كل هذا الضجيج من حولها..

همسُ الأفواه في القاهرة كثيرًا ما يتحوَّل إلى صراخ يصم الآذان.. صدمة غدر شريف، وكذب حرارة عواطفه تجاهها، جعلاها بحاجة ماسة للتغيير..

* * *

في صالة الاستقبال بمطار الملك عبد العزيز بجدة، استقبل أمين والدته وأخته فاطمة بابتسامة مقتضبة.. استدار على الفور دون أن يتيح لأيٍّ منهما معانقته. سار أمامهما يدفع عربة حقائبهما دون التفات، حتى أدرك مكان السيارة في ركن بعيد بساحة انتظار السيارات.. وهناك، حيث لا يكاد يراهم أحد.. عندها فقط.. التفت ناحيتهما وعانقهما بحرارة.

* * *

اجتمع أمين وفاطمة ولولوة حول فراش الأب.. قال عبد الله بعد صمت طويل:

- فاطمة يا بنتي، أحدثكِ الآن أمام والدتكِ وأخيكِ أمين، اللذين قمت باستشارتهما في الأمر، قبل أن أعرضه عليكِ..

رمقها بنظرة متفحصة وكأنه يتحسس رد فعلها المبدئي، ثم قال:

- يا فاطمة.. أراد الله لكِ رجلًا من أشرف الرجال وأكثرهم استقامة ونزاهة وسمعة طيبة وخلقًا حسنًا.. هو الدكتور عثمان با حمدين، إنه أستاذ جامعي مرموق في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.. يقيم في جدة.. ويتنقل ما بين المدينتين في أوقات محاضراته بمكة المكرمة.. ميسور الحال وعَلَمٌ من الأعلام في المملكة العربية السعودية وخارجها.. الأمر لله، ثم لكِ.. ما رأيكِ يا بنتي به كشريك حياة؟ نحن نثق في خُلقه ودينه.

لاذت فاطمة بالصمت، لم تتخيل في يوم من الأيام أن تتزوج بهذه الطريقة التقليدية.. إنها خريجة مدرسة من أرقى المدارس الفرنسية، تشرَّبت الثقافة الفرنسية حول الحرية وحقوق المرأة والمساواة التامة مع الرجل.. كيف تُسأل عن رأيها في رجلٍ لا تعرفه، ولم تَرَهُ إلَّا خلال لحظة مصافحة؟**!** لا هو شبيه بفتى أحلامها، ولا قربت أحاسيسها تجاهه من أمانيها الصغيرة..

طلبت مهلة للتفكير..

لم يُعجب طلبها صاحبي النوايا المتوارية دومًا، عبد الله وابنه أمين..

تسلل الوجوم إلى وجه لولوة؛ فهي تعلم ما تعانيه ابنتها جيدًا وما يريده والدها وأخوها، اللذان بالتأكيد كانت احتياجاتها ومتطلباتها آخر ما تحاورا حوله.. أو أنهما قد طرحاه في الأساس، خلال مشاوراتهما حول زواجها..

لقد أيقنت لولوة من ذلك عند انفرادها بفاطمة في غرفة نومها، عندما ارتمت فاطمة في حضنها باكية بحرقة بالغة.

13

يُعرف الدكتور عثمان با حمدين بأنه من رُوَّاد الجهاد الأفغاني.. كان قد أُعير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة إلى الجامعة الإسلامية الدولية بإسلام آباد في باكستان، فغدا قريبًا من المجاهدين الأفغان..

قدَّم استقالته في الجامعة الإسلامية بعدها بسنتين، وتفرَّغ للعمل الجهادي وجمع التبرعات من دول الخليج لصالح الجهاد.. وعلا كعبه من تعدُّد محاضراته وندواته التي كانت تُلهب حماس الشباب المسلم..

كان الدكتور، منذ الصغر، محافظًا على الصلاة وتلاوة القرآن، ملازمًا لمسجد الغفران بحي السبيل، وهو موقع أول منزل لأسرته بعد هجرتها من حضرموت إلى جدة.. عاش الدكتور منذ يفوعه في حي السبيل، وتولَّى رعاية أبناء الحي وتربيتهم على أخلاق وأفكار ومبادئ الإسلام.. كان عثمان قد تلقَّى تعليمه المدرسي في مدينة جدة، ومنها توجه إلى القاهرة، حيث التحق بجامعة الأزهر، وأكمل دراسته حتى حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في أصول الفقه، قبل أن يُعيَّن محاضرًا في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

بعد ثلاثة أشهر من العزلة التامة.. والمكوث بالبيت دون عمل، أو أي اهتمامات أخرى، اللهم إلا زيارة الأسواق الكبيرة.. تسلل إلى

نفس فاطمة شعور باليأس من أنها قد جرَّبت حظّها مرتين وتعثرت كل خطوات النهاية السعيدة..

كل مَن حولها من فتيات العائلة والأصدقاء والمعارف يتزوجن بتلك الطريقة التقليدية نفسها، فلتفعل كما تفعل بنات جدة.

أخبرت لولوة بموافقتها على الزواج.

* * *

رفض الدكتور عثمان أي شكل من أشكال أفراح الزواج.. بينما أصرت لولوة على فرح لابنتها.. فانتهى الأمر بالاتفاق على فرح للسيدات فقط، لا يحضره الدكتور..

بعد «ليلة الدُّخلة»، سافرا لقضاء أسبوع عسل، كما قال عثمان لفاطمة ضاحكًا.. ولم تمانع فاطمة رغم قصر مدة أسبوع العسل..

شعرت منذ اللحظة الأولى أن الرجل بقلبه رحمة ومودة نحوها.. فتركت قيادة أمورها إليه عن طيب خاطر.. لم تقاوم أحدًا في حياتها:
عبد الله ولولوة وسناء وإخوتها جميعًا..

كانت دائمًا فتاة مسلوبة الإرادة.. ليست لها مطالب كبيرة، كبقية الفتيات بعمرها.. حتى الرجلان اللذان نشأت بينها وبينهما علاقة عاطفية: الملازم أول محمد التلمساني وشريف حمدي، لم تكن معهما إلا فتاة مطيعة.. بعادهما عنها كان بإذعان للشهادة في المرة الأولى.. وقرار والديها وغدر الحبيب في الثانية..

كان للدكتور عثمان أفضلية على الرجلين السابقين.. سهَّل مهمة انتقالها، من فتاة وحيدة، مدللة، إلى زوجة بحياة ومسؤوليات وواجبات مغايرة تمامًا..

كان يمهد لكل شيء، حتى علاقتهما الحميمة لم تمر في ليلتهما الأولى إلا بعد أن حدَّثها مطولًا عن كل جوانبها ودور كل واحد منهما خلالها.. بلغة محببة يحوطها الود.. وكأنه ليس زوجًا فحسب.. بل أب وأخ كذلك..

عرض عليها جزيرة بالي بإندونيسيا لقضاء أسبوع العسل.. وجدت أن اختيار عثمان كان صائبًا.. رأت جزيرة بالي حقًّا رائعة وجميلة وخلابة.. غاباتها الاستوائية المتشابكة ذات الأشجار العالية.. المناخ الصحي المعتدل والمشمس.. شواطئها الخلابة..

خطت معه إلى الجانب الشرقي من الجزيرة، وأبهرها ما شاهدت.. شواطئ رملية ممتدة، وحدائق مرجانية.. أرادت أن تسبح، فبيَّن لها ما يعتقد أنه الصواب دينيًّا.. خضعت وسحبت رغبتها جانبًا.. واكتفت، وتمتعت، بدلًا عنها، بالرحلات البحرية، وصيد السمك..

ما نجحت في فرضه عليه، رغم عدم محبته له، هو التسوق، سواء في الأسواق الضخمة أو تلك الصغيرة.. ابتاعا بعض البضائع الشعبية والتراثية، وما يمهر السكان في صناعته..

وقد شكرها في نهاية جولاتهما تلك على عدم تركه يُضيِّع فرصة التمتع بكل ما أحله الله لهما في الحياة..

مضى الأسبوع بسرعة وسرور.. وبدأت رحلة العودة إلى جدة..

توقُّفٌ قصير أراده عثمان في كراتشي بباكستان، لتلبية بعض متطلبات عمله..

في الطريق إلى الفندق، لم يكن هناك ما يميز المدينة سوى سعة شوارعها ورائحة نفاذة تعبئ الأجواء، شبيهة برائحة الكاري.. حكى لها عثمان خلال الطريق أن كراتشي هي المركز المالي والتجاري لباكستان، ولأنها ميناء على ساحل بحر العرب، فرطوبة أجوائها عالية على مدار السنة.. لم يكن بها حقيقة ما يثير الخيال.. غير أن وجودها لأقل من اليوم أراح بالها..

أمضت يومها في الفندق، لم تغادره.. بينما تواصلت اجتماعات عثمان طوال اليوم مع أناس لم تَرَ أيًّا منهم، ولم تسأل عثمان عنهم..

أول دروس لولوة لها كانت ألا تتدخل في شؤون عمل زوجها.. لقد عملت بنصيحة أمها..

خلال حديث جانبي منفرد مع لولوة، بعد عودتها مباشرة من أسبوع العسل، قالت فاطمة:

- الحمد لله يا أمي على أي حال، أُقدِّر الرجل وأحترمه، وهو يرعاني ويحنو عليَّ.. ولكنني لا أراه في منامي!

صمتت لبرهة، ثم استطردت بشيءٍ من الحيرة:

- هل أنا امرأة جاحدة، أم ما كان لي توقُّع الحب؟ ما الحب حقيقة يا أمي؟ الحب الذي خبرته بحياتي كان دون ملامح.. شيء محيِّر يا أمي، هل هناك حب يمكن أن يُقال عنه إنه حقيقي؟ خِلت الحب مثل النسيم المنعش.. الفراش الدافئ.. التغلغل الشامل في الروح والفؤاد والخاطر.. إحساس دافق مثل الدم يسري في العروق وتحت الجلد.. يُدرك بانسيابه أطراف الروح والجسد.. كنت دومًا أنتظره يا أمي.. أحسست به في خيالي.. حسبت فتاي فارسًا فوق جواده.. ينتشلني وبيديه يحمل ردائي.. أَكُلُّ ذلك يا أمي أوهام شرقية في ليلة حارَّة رطوبتها لزجة وثقيلة؟

ساد الصمت بينهما.. شردت لولوة بأفكارها بعيدًا.. ثم قالت بعد فترة وجيزة، وبما يشبه الهمس:

- كثيرات ما عرفنه بحياتهن كلها!

عبرت غمامة بيضاء أمام وجه فاطمة.. دمعت عيناها.. غدت دموعها كقطرات الندى على سطح ورقة من أوراق الشجر..

* * *

في كثيرٍ من الأحيان، عندما ترغب المرأة في تبديد أحلامها الملحة، يكون أول شيء تفعله أن تنجب.. وهذا ما فعلته فاطمة، ثلاثة ذكور: عصام، ومؤمن، وإسلام.. توقفت بعدهم لتلتقط أنفاسها..

* * *

خلال فترة سجنه في «أبو زعبل».. وقع نبأ وفاة عم مدبولي حسنين المفاجئ، أثناء وقوفه في صالة مطار القاهرة الدولي مع بعض زملائه، وقعًا مُحزنًا على نفس طِلِب.. احتضن أحزانه رفيق له في السجن، يُدعى الشيخ عارف أبو السعود..

أعاد الشيخ عارف طِلِب إلى سجادة الصلاة، وتلاوة القرآن، وتدبر آياته، وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة..

تابع الشيخ عارف عودة طِلِب إلى التدين عن قرب، ودون كلل أو ملل..

كان قد تم القبض على الشيخ عارف بتهمة التخابر مع جهات خارجية للحصول على تمويل لعملية اغتيال الرئيس محمد أنور السادات.. كان الشيخ عارف وقتها عضوًا بارزًا وقياديًّا في جماعة إسلامية متطرفة..

مكث الشيخ عارف سنتين مع طِلِب في السجن.. وخرج قبله بفترة وجيزة، بعد ثبوت براءته من تهمة المشاركة في عملية اغتيال السادات.. وجَّه الشيخ دعوة إلى طِلِب لزيارته بعد خروجه من السجن، لتأمين وظيفة له يتكسَّب منها..

كان أول ما فعله طِلِب بعد الإفراج عنه هو زيارة الشيخ عارف، الذي رحَّب به ترحيبًا غير معتاد ومألوف منه.. منح الشيخ عارف طِلِب وظيفة قيادية في الشركة.. وهي شركة لا أحد يعلم

مَن هم شركاؤه بها.. ولكن طِلِب تعلّم بوضوح وبشكل مباشر وجوب الطاعة وعدم السؤال أو النقاش..

انتقل طِلِب بعد فترة وجيزة من تسلُّمه عمله، من 10 حليم أبو سيف إلى شقة جديدة من ممتلكات الشيخ عارف بحي الزيتون..

قال له الشيخ عارف:

- سندعمك بقوة حتى تستقر تمامًا في حياتك الجديدة.

* * *

ارتأت لولوة العودة إلى القاهرة لتفقُّد أحوال الفيلا..

كان تردد وقلق عبد الله من الموافقة على سفر لولوة إلى القاهرة مرجعهما تنامي أنشطة أيمن الظواهري، زعيم جماعة الجهاد الإسلامي المصرية، وتعرُّض أوتوبيس سياح إسرائيليين لهجوم في بداية السنة.. زاد عليه توقُّع نشوب الحرب بين قوات الحلفاء والقوات العراقية، بعد اجتياح القوات العراقية للكويت في 2 أغسطس 1990؛ ما قد يؤدي إلى عدم قدرة لولوة على العودة إلى جدة بعد انتهائها من تفقد المنزل وإجراء الإصلاحات والصيانة اللازمة..

* * *

تمكَّن سليمان أفندي من إقناع عبد الله بتخفيف رؤيته التشاؤمية للأحداث السياسية في المنطقة.. إثر ذلك قام أمين بترتيب سفر

لولوة إلى القاهرة..

اجتمعت مع طِلِب، الذي أمضى فترة سجنه وخرج للحياة إنسانًا مغايرًا لما كان عليه قبله.

* * *

في القاهرة.. أعادت لولوة الحياة إلى مبنى وغرف وذكريات الفيلا.. وبعد أيام قليلة تحدث معها عبد الله بخصوص نيته العودة إلى القاهرة؛ لتلقي العلاج من السُّكَّر، بعد أن أوكل إلى أمين إدارة شؤون أملاك عائلة رجب..

في الرابعة فجرًا، يوم 24 فبراير عام 1991، بدأت قوات التحالف توغلها في الأراضي الكويتية والعراقية.

تجمَّدت أعمال مكتب عبد الله بالكامل، بعد إعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش بدء العمليات الحربية لدرع الصحراء..

14

بعد انتهاء عقده مع جامعة الملك عبد العزيز بجدة وعدم التجديد له لتقادم أفكاره ومعلوماته، وندرة أبحاثه العلمية، وعدم سعيه الحثيث لتطوير ذاته، أو توسيع دائرة معارفه.. طلب الدكتور ياسين من أمين توظيفه كمستشار لمكتب عبد الله رجب، في النواحي الاقتصادية..

بدأ الدكتور، مدفوعًا من ملائكته، بإخضاع المكتب لبعض الطقوس الدينية التي تزيد أرباح ومكاسب الشركة، وأوعز لأمين بضرورة تغيير اللون الرمادي الداكن لسجاد وموكيت أرضية المكتب، إلى اللون الأخضر، ثم أقام أول خاتمة في مساء يومٍ أوعزت له الملائكة بأنه اليوم الذي ستُستجاب فيه كل الدعوات..

قال لأمين هامسًا أثناء قراءة الخاتمة:

- أبشر يا أمين! بدأ وصولهم! أرى أولهم عند باب المكتب يهم بالدخول وجناحاه يرفرفان فرحًا وبشرًا.. وصلت الملائكة يا أمين لمشاركتنا مجلسنا!

* * *

لم تمضِ سنة على عمل الدكتور ياسين بمكتب عائلة رجب حتى دبَّ الخلاف بين أمين وبينه..

بدأ عملاء المكتب يشتكون لأمين من تدني مستوى الاستشارات الاقتصادية التي يقدمها الدكتور ياسين لهم.. فقرر أمين إنهاء خدماته.. وعندما أبلغ الدكتور ياسين بالأمر، هاج وماج على غير ما يظهر.. غدا بوجهٍ جديدٍ تمامًا.. وتقدم بشكوى إلى مكتب العمل والعمال ضد مكتب عبد الله.. فحكم مكتب العمل والعمال بتصفية حقوق الدكتور ياسين دون أي تعويضات إضافية..

* * *

لم تكن صاعقة 11 سبتمبر 2001 إلا نتيجة حتمية لسلسلة من الأحداث، أدت تدريجيًّا إلى بلورة فكرة الحرب على العراق بغرض الدفاع عن النفس، كفاتحة للحرب على الإرهاب بعد ذلك..

في بداية عام 1993، تم تفجير سيارة في مرآب بناية مركز التجارة العالمي في نيويورك، واتهم فيها مواطن كويتي من أصول باكستانية عاونه آخر من أصول عراقية..

في منتصف 1998، تم تفجير سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في تنزانيا وكينيا، وتم اتهام القاعدة بتنفيذ الهجمتين..

قام بيل كلينتون بإصدار أوامره في 20 أغسطس 1998 بقصف أهداف في السودان وأفغانستان بصواريخ «توما هوك».. وكانت الأهداف في أفغانستان ما وُصف بمعسكرات لتدريب الإرهابيين..

لم يكن معسكر بيل كلينتون الإرهابي في أفغانستان سوى مسجد البشتو، القريب من المسجد الأزرق بمزار شريف.

ولسوء طالع فاطمة رجب، كان الدكتور عثمان با حمدين يُلقي خطبة الجمعة في حشد من المصلين بمسجد البشتو.. فلقي مصرعه على الفور متأثرًا بجراحه.. ودُفن رفاته باحتفال مهيب في بيشاور بباكستان.. بعيدًا عن فاطمة وأطفاله الثلاثة منها.

* * *

لجأت فاطمة إلى أمين لنجدتها في محنتها.. أوضح لها أمين، بصراحة وقحة، أنه لا مكان في داره لامرأة ثالثة بجوار زوجتيه السعودية والمغربية..

كانت عزيزة المغربية، زوجة أمين الثانية، شديدة الدهاء.. أوحت لأمين أن المكان لا يتسع لنساء ثلاث..

كانت تقود أمين دون أن يشعر.. أدخلت في روعه أنه صاحب القرار في حياتهما الزوجية.. بينما الواقع بعيد كل البعد.. كانت كشبكة أخطبوطية؛ عيناها وأصابعها في كل مكان.. كثيرًا ما ألحت عليه بالتفكير في مصير الفيلا بعد وفاة عبد الله.. لم تقُل ذلك مباشرة.. وإنما تركته يستنبطه ويُعمل تفكيره فيه.. دفعته للتفكير في الشروع بتقاسم تركةٍ صاحبها ما زال على قيد الحياة.

* * *

لم يكن أمام فاطمة إلا التفكير في العودة مع أطفالها الثلاثة إلى الفيلا والإقامة مع والديها هناك.. اتصلت هاتفيًّا بأمها، فأكدت لها أنه ليس أفسح من مصر لدخولها، ولا أحن من مائها وهوائها على كل مَنْ لاذ بها في يوم من الأيام..

عندما انفردت فاطمة بعبد الله ولولوة، صارحتهما بأن الدكتور عثمان لم يخلِّف لأولاده أو لها سوى ما مكَّنها من سداد تكاليف عودتهم إلى القاهرة.. أغدق عثمان على المجاهدين الأفغان، فذهبت أمواله أدراج رياح فعل خير، غير صائب..

15

كانت غرفة النوم الرئيسية في المنزل، الخاصة بعبد الله وزوجته، تطل على الحديقة الشمالية من خلال باب شيش.. تحرص لولوة على فتحه على مصراعيه حتى يتمتع عبد الله، خلال مكوثه شبه الدائم بفراشه، بمنظر دالية العنب، وشجرة المانجو، وخضرة حشائش الحديقة..

كان عبد الله كثير الشرود، لا يتحدث إلا قليلًا، على عكس ما كان خلال عنفوانه..

غدا كأنه يسترجع الماضي، أو يخاف المقبل من الأيام الباقية في عمره، الذي بدا له أن نهايته قريبة..

قال للولوة خلال نوبة من نوبات الانسحاب العميقة نحو المجهول:

- منذ قليل، كان الشيخ حسن رجب عند عتبة باب غرفتنا هذه، مع لفيفٍ من أصدقائه، يرتدون جميعًا الفوط اليمنية الملونة..

كثر تردد الموتى على أحلامه. مزيج من بداية ونهاية، تتصارعان بمخيلته. قليلًا ما فكر في حاضره.. كل شيء من حوله يوحي ببوادر خريف.. خريف ضارب للصفرة.. مثل رمال الصحراء..

زمنٌ آتٍ، تموت فيه الأوراق والأزهار، ويحل التيبس ضيفًا ثقيلًا على أغصان الأشجار..

* * *

خلال السنوات العشر الماضية.. ضُرِب برجا مركز التجارة العالمي في نيويورك.. تفجيرات إرهابية في أنحاء متفرقة من العالم.. قيود على الحريات الشخصية وخصوصية الأفراد.. تنامت مشاعر العداء تجاه الإسلام والمسلمين.. احتلال أفغانستان والعراق.. حرب مدمرة قامت بها إسرائيل ضد لبنان.. تبخُّر أسطورة التضامن العربي.. تكاثُر التنظيمات الإرهابية في المنطقة.. تنامي الخطاب الأصولي المتطرف.. انتشار التدين الشكلي.

* * *

ابتسم عبد الله ابتسامة ساخرة وهو يقول محدثًا نفسه:

- لن تفقد الكثير، يا عبد الله، بذهابك مع الشيخ حسن وأصدقائه اليمنيين أصحاب الفوط الملونة..

على صعيد آخر، كان 10 حليم أبو سيف دون قيادة فعلية بعد وفاة سناء بخاري.. لكن مرض عبد الله، وخلوده إلى فراشه أغلب الوقت، نصَّبا لولوة حاكمًا عامًّا جديدًا على الفيلا.. وكأن الفيلا، بتاريخها الذي تجاوز الستين عامًا، لم يحكمها إلا النساء..

بدأت لولوة حملة تغييرات داخل الفيلا، فحوَّلت غرفة طِلِب إلى غرفة نوم لابني فاطمة؛ عصام ومؤمن.. وبقي أصغرهم إسلام مع فاطمة في غرفتها الملاصقة للشرفة الغربية..

وأدخلت التكييف المركزي إلى الفيلا بدلًا من المراوح.. وأسست مطبخًا حديثًا عوضًا عن ذلك المتهالك.. كما أنها لم تنسَ أن تُعيد طلاء الجدران، وتغيير سجاد البيت، وغرفة استقبال الضيوف.. لكنها خلفت واجهة المبنى كما هي دون تغيير..

غدت الفيلا كعروسٍ عجوزٍ مبهرجةٍ.. تحمل على صفحة واجهتها عبق أصالة عريقة..

* * *

كثيرًا ما اشتكى عبد الله لابنته فاطمة سفه لولوة وتبديدها لأمواله.. لم يواجهها مباشرة، كان يخاف، بخرفٍ، أن تهجره مع رجل آخر..

مخاوف رجل شرقي، عندما يشعر بالعجز، من فقدان امرأة يحبها، ظلت إلى جواره ترعاه وتخدمه طوال حياتها، دون كلل أو ملل.

وكان مبعث حزن لولوة، تلك الزوجة الوفية الأصيلة، هو الحال الذي آلت إليه صحة زوجها في الشهور القليلة الماضية..

لا تكمن خطورة السكر في الأعراض، ولكن في المضاعفات التي تطول سائر أنسجة أجهزة الجسم.. بدأت أعصاب قدميه ويديه بالالتهاب الحاد.. شكا مرارًا من إحساسه بشلل عضلاتها وفقدانه الإحساس بها..

لاحظت فاطمة ارتخاء جفن عينه اليمنى، وحَوَلًا في عينه اليسرى..

بدأ عذابه الحقيقي مع جلسات غسيل الكلى، التي استهلكت كل قواه في التنقُّل ما بين فراشه والمستشفى..

كان من المحال على لولوة تغيير أسلوب معيشة عبد الله، منذ بداية إصابته بالسكَّر: الأكل الدسم، والحلويات، والشاي الشنكاريسي، والانفعال، والتوتر الدائم، ورفض القيام بأي حركة أو مجهود رياضي؛ جميعها أسهمت بسرعة في تفاقم مرضه..

اقترح الطبيب المعالج إجراء عملية زراعة الكلى له، ولكنه نبَّه إلى أنها ليست مضمونة بشكل كبير..

اتصلت لولوة هاتفيًّا بأمين في جدة.. كان رد أمين أن والده قد قارب التسعين من العمر.. والعملية مكلفة جدًّا.. وأحوال المكتب الاقتصادية متدهورة، يصعب معها توفير التكاليف المطلوبة..

اتصل عبد الله بسليمان أفندي، إثر سماعه رد ابنه أمين على طلب أمه، وطلب منه تسمية محامٍ على وجه العجلة لحاجته إليه..

* * *

بعد فراغه من صلاة الفجر بالمسجد الملاصق للعمارة التي يقطن بإحدى شققها، تلقى طِلِب مكالمة هاتفية من مدير مكتب الشيخ عارف، يطالبه فيها بالتوجه، في تمام الساعة التاسعة صباحًا، إلى الشركة لمقابلة الشيخ هناك..

قال له الشيخ عارف إن مجلس الإدارة قرر نقله إلى مدينة الرياض، بناءً على التقارير التي رُفعت بشأن جدِّيته وتفانيه في العمل، وذلك لافتتاح باكورة نشاط الشركة في السعودية..

وأردف الشيخ عارف قائلًا:

- ستكون أهم مسؤولياتك تقديم الخدمة الاجتماعية لسكان المدينة.. ضمن إطار نشاط المسؤولية الاجتماعية للشركة.. كنوع من العلاقات العامة، ولكنه نشاط يستهدف خدمة المجتمع المحيط بالشركة.. عليك تنوير شباب الرياض بأمور دينهم وإرشادهم لأصول العبادة واتباع الهداية وسبل الرشاد.. وذلك بالتأكيد وفقًا لمبادئ جماعتنا المتمسكة بشرع الله وسنة نبيه.. وسنمدك من هنا بكل ما تحتاجه من مواد إرشادية وتوجيهية..

توقف لوهلة، ثم استطرد قائلًا:

- لا تنسَ يا عبد المطلب.. مبدؤنا دائمًا: لا مناقشة ولا جدال.. السرية التامة في كل ما نفعل.. طاعة تامة وتنفيذ ما تؤمر به..

لم ينتظر الشيخ عارف من طِلِب أي إجابة.. وقف خلف مكتبه، مودعًا إياه بقوله:

- اذهب الآن لإعداد حقائبك، سنوفر لك بطاقة السفر..
لا تحتاج بالتأكيد لتأشيرة دخول إلى بلدك.. فقط، انتظر التعليمات منِّي شخصيًّا.. وبشكل مباشر.

* * *

تذكر طِلِب، أثناء تحليق الطائرة من القاهرة إلى الرياض، عبارة كان الأطفال يرددونها أثناء لعبهم في حارة الشام بجدة.. كانوا يقولون:

- ما فيه فكة من مكة..

هو الآن يقول:

- ما فيه فكة من الرياض..

على نفس الوزن والمعنى والمغزى..

لم يكن يريد مغادرة القاهرة أبدًا. ولكن شاء الله أمرًا مختلفًا.

بلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، ولم يعد إلى السعودية منذ أن غادرها وهو في التاسعة من العمر..

بالكاد يتذكر بعض الأحداث المتناثرة من طفولته بحارة الشام..

أبلغ أخاه أنه قادم لمهمة عمل.. وطرح عليه أسئلة عديدة عبر الهاتف، حول تكاليف الإقامة والمعيشة في المملكة..

أكد له أمين أنه سيتصل بأحد أصدقائه، ليكون في استقباله بمطار الملك خالد بن عبد العزيز بالرياض.. سيؤمِّن الرجل إقامته بأحد الفنادق، لحين ترتيب سكن مناسب له..

تمت إجراءات الدخول بيسر وسلاسة في حاجز الجوازات، قبل أن يتوجَّه إلى السير المتحرك للحقائب القادمة من القاهرة.. هناك، تقدَّم من طِلِب رجل في الثلاثينات من العمر، يرتدي ثوبًا أبيض وشماغًا
أحمر..

قال له مبتسمًا:

- أهلًا بالعم عبد المطلب.. أو طِلِب كما ينادونك في القاهرة..

لم يبدُ على طِلِب أنه يعرف الرجل؛ لذا اكتفى بابتسامة مقتضبة، عاد على أثرها الرجل قائلًا:

- تفضل معي إلى الداخل لتستريح من عناء السفر!

أجاب طِلِب بشيءٍ من القلق:

- والحقائب؟

ردَّ الرجل الغريب بحسم:

- ستأتيك إلى مكانك.. أينما كنت!

وعندما تردد طِلِب في تلبية دعوة الرجل الغريب، قام الأخير بتناول بطاقة تعريف، على ما يبدو رسمية، بشخصه ومهنته، من الجيب العلوي لثوبه، وقرَّبها من طِلِب.. فنكَّس طِلِب رأسه أرضًا..

اتجه الرجل الغريب، ومن خلفه طِلِب، نحو بوابة في نهاية الصالة مكتوب عليها: «ممنوع الدخول لغير موظفي المطار».

16

اندلعت الثورة الشعبية في تونس أواخر عام 2010، احتجاجًا على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السيئة، وتضامنًا مع محمد بو عزيزي، الذي أضرم النار في نفسه..

استطاعت هذه الثورة، في أقل من شهر، الإطاحة بالرئيس التونسي زين العابدين بن علي، الذي حكم البلاد لمدة 23 سنة بقبضةٍ حديدية.

وفي مصر، انطلقت دعوة إلى إضراب سلمي، احتجاجًا على تدهور الأوضاع الاقتصادية، سرعان ما لقيت استجابة من حوالي 70 ألفًا من الجمهور..

بدأت مجموعة من التحركات الشعبية ذات الطابع الاجتماعي والسياسي انطلاقها يوم الثلاثاء 25 يناير 2011..

بدأ أبناء المحافظات بعمل احتجاجات على سوء الأوضاع في مصر.. وتطورت الأمور بشكل مفاجئ وسريع..

تنحى الرئيس محمد حسني مبارك عن الحكم..

أعلن نائبه في بيانٍ مُقتضبٍ تخلِّي الرئيس عن منصبه.. وأنه كلَّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد..

بعدها بخمسة أشهر.. في يومٍ حارٍّ من يونيو في العام نفسه، كانت فاطمة تضع اللمسات الأخيرة لزينتها الصباحية، قبل التوجُّه إلى عملها الجديد في قناة «الأحداث» الفضائية.. لم يكن هناك بالمنزل سوى
عبد الله رجب في غرفته.. بينما انطلقت لولوة منذ الصباح الباكر لتسوق احتياجات التموين الأسبوعية..

في طريقها للخروج من المنزل، مرَّت فاطمة، كعادتها، على والدها للسلام عليه..

كان عبد الله جالسًا فوق سريره يتأمل شجرة المانجو ودالية العنب.. ألقت عليه فاطمة تحية الصباح..

لم يرد.

اقتربت منه تداعبه بهمسٍ.. لم يتحرك، بل ظلَّ على وضعه.. حرَّكت يدها أمام عينيه.. فلم تطرفا..

أدركت على الفور أن هناك أمرًا جللًا..

تجمَّدت لوهلة بين مصدقة وغير راغبة بالتصديق.. إحساس فجائي وصاعق بالضياع.. شلل تام.. شعور فريد بفقد غالٍ ونفيسٍ، عند الابنة، تجاه أبيها..

أسرعت إلى خارج الغرفة.. توقفت عند الباب وأمسكت بمقبضه، كانت مترددة بين الخروج للبحث عن مساعدة والعودة لنجدة أبيها..

صرخت، مطلقة من صدرها عويلًا مؤلمًا.

* * *

لم تنقطع لولوة الزهراني عن النحيب طوال اليوم التالي..

انتظرت قدوم ابنها أمين من جدة، لتلقي عزاء أبيه..

مُدِّد جثمان عبد الله على ظهره وصدره عارٍ، في غرفة نومه، فوق طاولة خشبية عريضة.. شُغِّل التكييف لأعلى درجات البرودة، تفاديًا لبدء تحلُّل جثته بفعل الحرارة..

جلست فاطمة على كرسي بجواره تقرأ من مصحفها ما تيسَّر لها من الآيات القرآنية..

كأن عبد الله يُنصت بخشوعٍ لتلاوتها.. عيناه مقفلتان، وذراعاه ممددتان باسترخاءٍ أبديٍّ غريبٍ..

* * *

عبثية كانت حياته.

السوط السوداني للشيخ حسن رجب.. الأم الهندية التي ماتت دون أن تروي ظمأه لحنانها.. أم بديلة، الجارية زينب، الحبشية السمراء، التي استباح الشيخ حسن أحضانها الدافئة..

عائلة كبيرة بمطالب لا تنتهي..

عرق ودموع وضغوط وآلام..

عالم العمل لا يعرف إلا الانحناء عند كل مطلب..

لم يعرف السعادة بعمره..

ولماذا كانت تلك السنوات الطويلة من حياته؟ أليحتويه الثرى في النهاية محاطًا بقماش مهلهل؟ أي نصر حققه الرجل؟ أي مجد يحمله معه لآخرته؟

حُبيبات زعفران، ومسك مغشوش، أم قطن محشور؟!

وصل أمين، مع آخر رحلة طيران من جدة.. وقف أمام الجثمان يُتابع غسل أبيه.. قام الغاسل ومساعدوه بستر عورة عبد الله ورفع جثمانه قليلًا، قبل عصر بطنه برفق.. لفَّ الغاسل على يده قماشة، وطَهَّر عبد الله بها، ثم وضَّأه وضوء الصلاة، وواصل عمله بمهارة معتادة، حتى انتهى من الغسل، فالتفت نحو أمين، وطلب كفنه قائلًا:

- أحضر لي ثلاثة أثواب بيضاء..

فتح أمين الباب بسرعة، صاح بعصام ابن أخته:

- الكفن يا عصام.. أين الكفن؟

أسرع عصام نحو أمه التي ما إن مثلت أمام أمين حتى قال لها:

- إذا كنتم نسيتم الكفن، فلا داعي لشراء الجديد.. يمكنكم الحصول عليه من تبرعات أهل الخير بالمساجد.. قليل، هذه الأيام، مَنْ يشترون الأكفان لموتاهم..

رمقته فاطمة بنظرة فيها الكثير من الازدراء، ثم ولَّته ظهرها لتشتري بنفسها كفنًا جديدًا لأبيها..

* * *

كان المنزل يضج بالمعزين من الأقارب والأصدقاء والمعارف..

مرت ثلاثة أيام لم ينقطع فيها الحضور.. كذلك لم ينقطع اتصال أمين بزوجته المغربية.. كانت، عبر الهاتف الجوال، تُملي عليه ما ينبغي قوله وعمله.. وكان يعود بين فترة وأخرى للتحدث مع الشيخ السوري في المكتب ليُفتي له في بعض الأمور الشرعية المتعلقة بالميراث وحقوق الورثة.. ويعود للاتصال برجلٍ خليجي مجهولٍ داخل أحد الفنادق القريبة بمصر الجديدة..

غدت الفيلا وكأنها في تلك الليالي الحزينة مثقلة بالهموم..

يحسبها أمين مجرد وليمة.. عليه الإسراع بالتهام أكبر قدر منها قبل أمه وأخته وأولادها الثلاثة..

* * *

في الليلة الثالثة.. مع انصراف آخر المعزين.. بوجود كل أفراد العائلة في الشرفة الملاصقة للحديقة الغربية للبيت.. حل رجل

لتقديم العزاء.. كان يحمل بيده حقيبة، يبدو معها وكأنه موظف حكومي أو مأمور ضرائب..

قدَّم نفسه قائلًا:

- محمد بهجت المحامي..

عرفته لولوة على الفور وتذكرت اسمه، كانت قد سمعته عندما ردَّده عبد الله خلال محادثة دولية طويلة مع سليمان أفندي من جدة.. بعد صمت طويل، قال له أمين مستبشرًا:

- لقد جئت في الوقت المناسب يا متر..

- خيرًا؟

- نريد، نحن الورثة، حق الله..

- حسنًا.

- نريد بيع الفيلا وتوزيع حصيلة البيع على الورثة وفقًا لشرع الله..

انبرت له لولوة معترضة:

- كيف تتحدث عن البيع دون استشارتنا جميعًا؟

- حق الله يا أمي.. لا أريد إلا تطبيق شرع الله..

لقد أجريت اتصالات مكثفة بصديق لي، من كبار رجال الأعمال في دولة خليجية، يضع عينيه على مصر منذ مدة طويلة، ويريد إقامة مشروع استثماري بها..

صمت لبرهة، ثم أعقب:

- سيُحيل هذا المبنى القديم إلى ركام، ويبني فندقًا ذا سبعة طوابق، به سوبر ماركت، ومحال تجارية، وكوفي شوب.. والرجل موجود في فندق قريب ينتظر إشارتنا بفارغ الصبر..

قال المحامي:

- هذه المنطقة من المناطق المحظورة، التي لا يُسمح فيها بمثل هذه الإنشاءات..

- لا يا متر.. علمنا من جهات موثوق بها أنه عما قريب سيصدر قرار بإزالة قيود هذا الحي الهادئ..

أعقب بعدها:

- لقد رحل حسني مبارك من الحي..

عادت لولوة مستنكرة ما ينوي أمين عمله، وقالت معاتبة:

- ألم تفكر في أمك وأختك وأولادها؟ هل تريد أن يكون مصيرنا الشارع؟

- يا أمي، هناك العديد من المناطق السكنية الجديدة بالقاهرة..

وبلهجة أكثر حسمًا أعقب:

- سنطبِّق شرع الله يا أمي..

تفحَّص أمين الوجوه، ثم التفت ناحية المحامي متسائلًا:

- الآن يا متر، نريد تكليفك بتولي مهمتَي بيع الفيلا لرجل الأعمال الخليجي، ثم توزيع العائد علينا نحن الورثة الشرعيين..

ما كاد المحامي يشرع في الإجابة، حتى قاطعته لولوة قائلة:

- ما الذي تريد بيعه؟ المسألة ليست في وجود مبارك أو عدم وجوده.. بالقليل من الصيانة والتجديد تصبح الفيلا عروسًا من جديد.. الفيلا هذه تاريخنا، حياتنا، أنا وأبوك وفاطمة.. انظر من الشرفة حولك، يمينًا ويسارًا.. تأمل أضواء شارع حليم أبو سيف.. اعتدنا كل شيء هنا.. السماء.. النجوم.. لو حباك الله ببعد الرؤية من هنا، لرأيت الأهرام، وأبا الهول، والنيل، والقلعة.. هذه الفيلا تاريخ ورواية حضارة..

بنبرة استجداء وجهت كلامها إلى المحامي، قائلة:

- يا أستاذ.. الفيلا ليست للبيع..

ثم صمتت لتلتقط أنفاسها اللاهثة، قبل أن تتابع، موجهة كلامها إلى ابنها مرة أخرى:

- سأقاضيك وأفضحك في كل مكان إذا لم تتراجع عن مخططاتك الشيطانية أنت وزوجتك اللئيمة!

هنا انبرى أمين موجهًا حديثه للمحامي، وهو يبتسم ابتسامة تحمل في جوانبها السخرية والاستهزاء بما تقوله لولوة:

- يا متر! بعد هذه الخطبة العصماء، من أمنا المتشبثة بالماضي، التي تتطلب بالتأكيد التصفيق الحاد.. دعنا نعُد لسماع إجابتك.. كيف نبيع هذا المكان؟

وهنا تساءل المحامي بهدوء، بعد أن بدا على وجهه امتعاض من سخرية أمين مما تقوله والدته:

- تبيع ماذا؟

- 10 حليم أبو سيف.. هذا المكان الذي نقف فيه!

- الأمر بسيط ولا تعقيد يشوبه.. فقط..

صمت المحامي متعمدًا، لفترة، رفع خلالها من حدَّة توتر الجلوس، ثم قال:

- ينبغي حصولك على موافقة المالك!

بدا التوتر على وجه أمين، حين قال محتجًّا:

- أي مالك يا متر؟! لقد مات أبي منذ ثلاثة أيام..

ابتسم المحامي ابتسامة مختصرة وهو يُعقب قائلًا:

- أنت مخطئ يا سيدي.. العقار رقم 10 شارع حليم أبو سيف ملك السيدة فاطمة عبد الله رجب، بصك شرعي موثق.. في حقيبتي هذه نسخة منه، إن شئت الاطلاع عليه..

صمت لوهلة ثم استطرد:

- والدك عبد الله، يرحمه الله، كتب لأختك فاطمة ملكية الفيلا، قبل وفاته بثلاث سنوات، بيعًا وشراءً، بحيث يستحيل عليك الاعتراض.

على أثر إجابة المحامي محمد بهجت، وكأن أبناء فاطمة قد فهموا معنى إجابة المحامي، سارعوا بالركض ناحية الباب الشيش، لدخول البيت.. بينما ساد الوجوم وخيبة الأمل وجه أمين..

استوقفت لولوة أحفادها فرحة وقالت:

- إلى أين يا أولاد؟

أجابها أكبر أحفادها، عصام:

- سنستبدل ملابس الحزن.. سنسهم في صيانة وتجديد 10 حليم أبو سيف؛ لتصبح الفيلا عروسًا من جديد.

تمت